١٦

# أدب المهالبة: القيم الأخلاقية، والخصائص الفنية

**أ. عبد الله بن سعيد الحجري**
**المشرف الأول لمادة اللغة العربية بشمال الشرقية، وزارة التربية والتعليم**
abdullah.alhajri3@moe.om

**الملخص:**

تعنى الورقة الحالية بجمع ما توفّر وتيسّر في كتب الأدب القديمة من أقوال ومعان تُعزى إلى آل المهلب بن أبي صفرة في حال السلم والحرب. ومن تلك الأقوال وصية المهلب لبنيه، ورسائله إلى الحجاج، وخطبة يزيد بواسط، وخطبة كعب الأشقري أمام الحجاج التي وصف فيها أبناء المهلب. ويجمع البحث ما في بطون الكتب التي عُنيت بتراث المهالبة؛ لدراستها وتحليلها، ولفت نظر الباحثين إلى استقصائها ودراستها. ومن الخصائص الفنية التي اتسمت بها تلك النصوص في مجملها صدق العاطفة وعمقها واستمراريتها وسموها، وموضوعية الأفكار والمعاني وعقليتها، أما الخيال فيظهر في بعضها فقط، ويغلب عليها الإنشائي، جزل الألفاظ واضح العبارات.

**الكلمات المفتاحية:** أدب المهالبة. وصية المهلب. الخصائص الفنية. القيم الأخلاقية.

**المقدمة:**

إن المطالع في كتب الأدب القديمة ليشده ما يجده مبثوثا في صفحاتها من أقوال رائقة، ومعان عجيبة، تعزى إلى آل المهلب بن أبي صفرة في حالَي السلم والحرب، وهي مع جزالة لفظها وحسن سبكها تفيض بالحكمة، وتتفجر بالقيم الأخلاقية النبيلة؛ كالشجاعة، والحزم، والأنفة، والرجولة، والجود، وتنم عن كبَر نفوسهم، وعلوّ هممهم، وما اكتسبوه من حِكَم مَن سبقهم، وخبرتهم في الحياة التي ذاقوا حلوها ومرها، تابعين ومتبوعين، أمراء وقادة جيوش، وقد جمع الباحث تلك الأقوال من بطون تلك الكتب، مثل: كتاب البيان والتبيين للجاحظ، ومحاضرات الأدباء للأصفهاني، ونثر الدر للآبي، وأدب الكتاب للصولي، وغيرها؛ لما في جمعها ما يعين على دراستها، ويلفت نظر الباحثين إلى استقصائها ودراستها.

**أقوالهم السائرة:**

جمعت كتب الأدب خاصة، وبعض كتب اللغة ودواوين شعراء عصر المهالبة الكثير من أقوال المهالبة السائرة، التي تناقلتها الألسن لما اشتملت عليه من حكم، وما تحلّت به من الحث على مكارم الأخلاق وجميل الصفات، وما نتجت عنه من علو الهمة والسعي إلى المعالي، ويثبت هذا القسم أهم ما ورد من أقوالهم، وهي:

نازع رجلٌ المهلبَ فأربى عليه[1]، فقيل له: لم سكتَّ عنه؟ قال: استحييت من سخف المسابّة ورغبت عن غَلَبة اللئام، وكان إذا سبني تهلل وجهه واستنار لونه وتبجحت نفسه، فإن غَلب فبفضل القِحَة، ونبذِ المروءة، وخلعِ رِبقة الحياء، وقلة الاكتراث بسوء الثناء.[2]

وقال المهلب يا بَنِيَّ تباذلوا تحابُّوا، وإنَّ بَني الأم يختلفون فكيف بنو العَلّات؟ إن البرَّ يَنسأ في الأجل ويزيد في العدد، وإن القطيعة تورث القِلَّة وتعقب النار بعد الذِّلة، واتقوا زلة اللسان فإن الرجل تزل رجله فينتعش، ويزل لسانه فيهلِك،

١) أي زاد عليه.

٢) الراغب الأصفهانى، أبو القاسم الحسين بن محمد: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ط١، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان، ١٤٢٠ هـ، ج١ ص ٤٨٩.

وعليكم في الحرب بالمكيدة فإنها أبلغ من النجدة؛ فإن القتال إذا وقع القضاء، فإن ظفر فقد سعد، وإن ظُفر به لم يقولوا فرّط.[١]

قال المهلب: ليس شيء أنمى[٢] من بقية السيف. فوجد الناس تصديق قوله فيما نال ولده من السيف وصار فيهم من النماء.[٣]

قال المهلب بن أبي صفرة: عجبت لمن يشتري العبيد بماله كيف لا يشتري الأحرار بفَعاله؟[٤]

قال المهلب: يعجبني من الرجل الكريم خصلتان: أن أرى عقله زائداً على لسانه، ولا يعجبني أن أرى لسانه زائداً على عقله.[٥]

سمع المهلب رجلاً يسبّ آخر، فقال: اكفُف فوالله لا ينقى فوك من سَهَكِها[٦] أبدًا[٧]

وكان يقول: أدْنى أخلاق الشريف كتمانُ السِّر، وأعْلى أخلاقه نسيّانُ ما أسِرَّ إليه.[٨]

وقيل للمهلب في بعض حروبه: لو نمت. فقال: إن صَاحب الحرب إذا نام نامَ جَدُّه.

وقال له رجل: إن لي حَاجةً لا تَرْزَؤك في مَالك، ولا تنكُدُك في نفسك، قال: والله لا قَضَيتُها. قال: ولمَ؟ قال: لأن مثلي لا يُسأل مثلها.[٩]

وذُكرت امرأةٌ عند هندٍ بنت المهلب بجمالٍ، فقالت هند: ما تحلّين النساء بحليةٍ

١) الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، د.ط، دار الجيل، بيروت، لبنان، د.ت، ج٢ ص ١٨٨.

٢) من النماء أي الزيادة، يقصد أن القوم الذين يكثر فيهم القتل ظلما يزيدون عددًا.

٣) الجاحظ، البيان والتبيين، مرجع سابق، ج١ ص٣٧٠.

٤) من غاب عنه المطرب للثعالبي ص ١١٠.

٥) ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين الانصاري: مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ط١، تحقيق: روحية النحاس ورياض عبد الحميد مراد ومحمد مطيع، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، سوريا، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٤م، ج ٢٦ ص ٤٥.

٦) السهك: الريح الكريهة.

٧) الأصفهاني، مرجع سابق، ج١ ص ٤٦٥.

٨) الآبي، أبو سعد منصور بن الحسين الرازي: نثر الدر في المحاضرات، تحقيق: خالد عبد الغني، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م، ج٥ ص ٤٦.

٩) المصدر السابق، ص ٤٨.

أحسن من لبّ ظاهر تحته أدب كامن.[١]

وقال المهلبُ لبنيه: إذا وليتُم فلينُوا للمُحْسن، واشتدُّوا على المُريب، فإن الناسَ للسُّلطان أهيبُ منهم للقرآن.

وقال كفى بالمرء مسألةً أن يغدُوَ عليك ويرُوح.

ومر بقوم من ربيعة في مجلس لهم، فقال رجلٌ من القوم: هذا سَيِّدُ الأزد، قيمتُه خمسمائة درهم. فسمعه المهلب، فأرسل إليه بخمسمائة درهم. قال: دُونك يا ابن قيمةَ عمِّك، ولو كنت زدت فيها لزدتك.

قيل للمهلّب: مَا النُّبلُ؟ قَالَ أَن يخرج الرجلُ من منزله وَحده ويعودَ في جمَاعَة. وَقَالَ: مَا رأيتُ الرجال تضيقُ قلوبُها عِنْد شَيْء كَمَا تضيق عِنْد السرِّ.

قَالَ بَعضهم: مَرَرْت على هِنْد بنت الْمُهلب، فَرَأَيْت بيَدهَا مغزلاً تغزل به، فَقلت لَهَا: تغزلين؟! قَالَت: نعم سَمِعت أبي يذكرهُ عَن رَسُول الله ﷺ، قَالَ: "أَعظمكن أجرا أَطْوَلكُنّ طَاقَة، وَهُوَ يطرد الشَّيْطَان وَيذْهب بِحَدِيث النَّفس".[٢]

كانت هند بنت المهلب تقول: إذا رأيتم النعمة مستبدرة[٣] فبادروها بالشكر قبل حلول الزوال.[٤]

قيل للمهلب: بم ظفرت؟ قال: بطاعة الحزم وعصيان الهوى.[٥]

قال المهلب بن أبي صفرة: خير مناقب الملوك العفو.[٦]

وكتب الحجاج إلى المهلب يُعجِله في حرب الأزارقة ويُسمّعه، فكتب إليه المهلب:

---

١) لباب الآداب لأسامة بن منقذ ج١ ص ٢٢٩.
٢) نثر الدر للآبي ج٤ ص ٧١.
٣) لعلها تامة كالقمر وهو بدر.
٤) بهجة المجالس وأنس المجالس ص ٣١٦.
٥) نفسه، ص ٨١١.
٦) نفسه، ص ٣٧١.

"إن البلاء كل البلاء أن يكون الرأي لمن يملكه دون من يبصره".[١]

من كلام حبيب بن المهلب لبنيه: (لا يقعدن أحدكم في السوق، فإن كنتم لا بدّ فاعلين، فإلى زَرّاد أو سَرّاج أو وَرّاق).[٢]

وَعَنْ يزيد قَالَ: مَنْ عُرِفَ بِالصِّدْقِ، جَازَ كَذِبُهُ، وَمَنْ عُرِفَ بِالكَذِبِ، لَمْ يَجُزْ صِدْقُهُ.

وَقِيْلَ لَهُ: أَلاَ تُنْشِئُ لَكَ داراً؟ قَالَ: لاَ، إِنْ كُنْتُ مُتَوَلِّياً، فَدَارُ الإِمَارَةِ، وَإِنَّ كُنْتُ مَعْزُوْلاً، فَالسِّجْنُ.[٣]

وروي أنَّ فتى من الأزد دفع إلى المهلّب بن أبي صفرة سيفاً له وقال: يا عمّ! كيف ترى سيفي هذا؟ فقال له المهلّب: سيفك جيد إلاَّ أنَّه قصير، فقال له الفتَى: أطوِّله يا عمّ بخَطوي، فقال له: والله يا ابن أخي إنّ المشي إلى الصين أو إلى أقصى أذربيجان على أنياب الأفاعي أسهل من تلك الخطوة. لم يقل المهلّب هذا جبناً، بل على ما توجب الصورة؛ إذ كانت تلك الخطوة قرينة الموت.[٤]

ويقال: إن المهلب لما توسَّم النجابة في ابنه يزيد وهو صغير أراد أن يختبره، فقال له: يا بني ما أشد البلاء؟ قال: يا أبتِ معاداة العقلاء، ثم قال: أقلني، قال: قد أقلتك فقل: فقال: أشد البلاء تأمير اللؤماء على الكرماء. ثم قال: أقلني قال: قد أقلتك فقل: فقال: أشد البلاء معاداة العقلاء ومسألة البخلاء وتأمر اللؤماء على الكرماء، فقال المهلب: والله يا بني ما يسرني بقولك مقول لقمان، ولا يعدل عندي بقاؤك ملك سليمان.[٥]

يقال أهوت إلى يزيد بن المهلب حية فلم يتوَقّها، فقال له أبوه ضيَّعت الحزم من

١) الجاحظ، ج١، مرجع سابق، ص٢٥٣.
٢) الأعلام للزركلي ج٢ ص١٦٦، يقصد بائع دروع أو سروج أو ورق.
٣) سير أعلام النبلاء ج٤ ص٥٠٤.
٤) الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين ج١ ص٤٣.
٥) المحاضرات في اللغة والأدب ص٢٤٧.

حيث حفظت الشجاعة.[١]

وقال المهلب بن أبي صفرة واسم أبي صفرة ظالم بن سرّاق: أناة في عواقبها دَرَك خير من عجلة في عواقبها فَوْت.[٢]

حدثني أحمد بن يزيد قال، حدثنا أبي عن عمه حبيب بن المهلب قال: ما رأيت قَطُّ رجلاً مستلئماً في حربٍ إلا كان عندي بمنزلة رجلين اثنين، ولا رأيت رجلين حاسرين في حربٍ قط إلا كانا عندي بمنزلة رجلٍ واحدٍ.[٣]

قال يزيد بن المهلب: الكذاب يخيف نفسه وهو آمن.[٤]

قيل ليزيد بن المهلّب: بم نلت هذا الأمر؟ قال: بالعلم؛ قالوا: فقد رأينا من هو أعلم منك لم ينل ما نلت؛ قال: ذلك علمٌ أخطئ به مواضعه، وهذا علمٌ أصيب به فرصته.[٥]

قال المهلب لبنيه: إياكم والعينة[٦]، فإنها لعينةٌ، وقد تعينت مرةً بأربعمائة درهمٍ، فما تخلصت منها إلا بولاية البصرة.[٧]

قال يزيد بن المهلب: ما يسرني أني كفيت أمر الدنيا كله، قيل: ولم أيها الأمير؟ قال: أكره عادة العجز.[٨]

وقال المهلب: ما ضاقت صدور الرجال عن شيء كما تضيق عن السر.[٩]

وقال المهلب بن أبي صفرة: ما السيف الصارم في يد الرجل الشجاع بأعزَّ له من

---

١) غرر الخصائص الواضحة ص ٤٣٦.
٢) المصدر نفسه ص ٤٤٢.
٣) أخبار أبي تمام ص ١٤٦.
٤) البصائر والذخائر ج١ ص ٣٥.
٥) المصدر السابق ج٧ ص ١٧٦.
٦) الربا.
٧) التمثيل والمحاضرة ص ٤٣٤.
٨) التذكرة الحمدونية ج٢ ص ٣٠.
٩) المحاسن والأضداد ص٤٩.

الصدق.[١]

قال المهلب بن أبي صفرة: من ضاق قلبه اتسع لسانه.[٢]

قال يزيد بن المهلب: الحياة أحب شيء إلى الإنسان، والثناء الحسن أحب إليّ من الحياة، ولو أني أعطيت ما لم يعطه أحد لأحببت أن يكون لي أذن أسمع بها ما يقال غداً إذا مت كريماً.[٣]

قال المهلب بن أبي صفرة: الحسد شهابٌ لا يبالي من أصاب، وعلى من وقع.[٤]

بلغ سعدًا[٥] شيء فعله المهلب في العدو، والمهلب يومئذ فتى، فقال سعد: اللهم لا تره ذلاً. فيرون أن الذي ناله المهلب بتلك الدعوة.[٦]

قيل ليزيد بن المهلب: إنك لتلقي نفسك في المهالك، قال: إن لم آت الموت مسترسلا أتاني مستعجلا، إني لست آتي الموت من حبه وإنما آتيه من بغضه، ثم تمثل: [من الطويل][٧]

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد  لنفسي حياة مثل أن أتقدّما

وسأل يزيدَ بنَ المهلَّب رجلٌ من أصحابه حاجةً وذَكَرَ له خَلّة، فقال: أوجِّهُ بها إليك، ثمَّ حَمَلَ إليه خمسين ألفَ درهم، ثم كتب إليه: قد وجَّهتُ إليك بخمسينَ ألفَ درهم، لم أذكُرْها تمنُّناً، ولم أدَعْ ذكرها تجبُّراً، ولم أقْطَعْ بها لك رَجاء، ولم أُرِدْ بها منك جزاء.

وقيل ليزيد: ما أحسَنُ ما مُدِحتَ به؟ قال: قول زياد الأعجم:[٨]

١) الموشى ص ٤١.
٢) نفسه، ص ٤٦.
٣) ربيع الأبرار ج٥ ص ١٠٣.
٤) رسائل الجاحظ ج١ ص ٣٤٥.
٥) هو ابن أبي وقاص، وكان يسمى المستجاب الدعوة. انظر: الآبي، نثر الدر ج٢ ص ٨١.
٦) الجاحظ، البيان والتبيين ج٣ ص ٢٧٨.
٧) التوحيدي، مرجع سابق، ج١ ص ١٨٢.
٨) الحيوان ج٧ ص ٨٨.

فتًى زَادهُ السُّلطان في الحمد رَغبةً إذا غَـيَّر السـلطـانُ كـلَّ خليلِ

قالت خيرة بنت ضمرة القشيرية امـرأة المهلب للمهلب: إذا انصرفت من الجمعة فأحب أن تمر بأهلي فقال: إن أخاك أحمق، قالت: فأحب أن تمر بهم. فجاء وأخوها جالس فلم يوسع له، فجلس المهلب ناحية ثم أقبل عليه وقال: ما فعل ابن عمك فلان؟ قال حاضر، قال: أرسل إليه، ففعل، فلمّا نظر إلى المهلب غير مرفوع المجلس قال: يا ابن اللخناء، المهلب جالس ناحية وأنت في صدر المجلس؟! وواثبه، فتركه المهلب وانصرف، فقالت له خيرة: أمررت بأهلي؟ قال: نعم، وتركت أخاك الأحمق يُضرب.[1]

قال سليمان بن عبد الملك ليزيد بن المهلب: أكره منك ثلاثاً؛ قال: وما هي؟ قال: طيبك يُرى؛ وطيب الرجال توجد له ريحة ولا يُرى لونه، وخُفّك أبيض؛ وحَقٌّ الخف أن يخالف لونه لون الثياب، وتكثر مس لحيتك. فغيّر الطيب والخف، ولم يدَع مسّ لحيته، وقال: ما رأيت عاقلاً يلم به أمر إلا كان مُعَوّله على لحيته.[2]

**خطبهم:**

لما كان المهالبة المشهورون أصحاب إمارات، وولايات، وقادة جند، كان لا بد من وجود خطب لهم، ويشتمل هذا القسم على خطبتين من خطبهم وهما يدلان على فصاحتهم، وحسن خطابهم للناس، ورجاحة عقولهم:

لما اسْتخلف المهلبُ ابنه المغيرة على حَرْب الخوارج، وعاد هُو إلى مُصْعب ابن الزبير، جمعَ الناسَ فقال لهم: إنِّي قد استخلفتُ عليكم المغيرة، وهُو أبو صغيركم رقةً ورحمةً، وابنُ كبيركم طاعة وبراً وتبجيلا، وأخُو مثله مواساة ومناصحة؛ فلتحُسن له طاعتُكم، وليِلِنْ له جانبكُم، فواللّه ما أردتُ صواباً قطُّ إلا سَبقني إليه[3]

خطبَ يزيدُ بن المهلب بواسط فقال: يا أهل العراق، يا أصحَاب السبق والسِّباق،

١) التذكرة الحمدونية ج٣ ص ٢٥٤.
٢) ربيع الأبرار ج٢ ص ١٨٨.
٣) الآبي، ج٥، مرجع سابق، ص ٤٦.

ومكارم الأخلاق، إن أهل الشام في أفوَاههم لقمةٌ دَسمةٌ قد زبّبت[١] لها الأشداق، وقامُوا لها على ساق، وهم غير تاركيها لكم بالمراءِ والجدال، فالْبَسوا لهم جُلودَ النمور.[٢]

**رسائلهم:**

لا بد لمثلهم أن يكون لهم مراسلات إلى من فوقهم من المسؤولين، وإلى من دونهم من العمال، وقد اخترت من مراسلاتهم ما يأتي:

كتب المهلب: أما بعد، فإنه لا يوهن الإسلام خروج من خرج منه، ولا يعيبه إلحاد من ألحد فيه، ومدّعوه كثير ومصيبوه قليل، وليس كل من يقاتل عنه من أهله، ولا هو لكل من يقاتل به. وقد كان هذا العدو أصاب في إخوانكم مصائب أطمعتهم فيكم، فلما استوقد الحرب بنا وبهم، جاءنا القضاء بأمر جاوزت النعمة فيه الأمل، فأصبح ذلك العدو بعد ذلك دريئة رماحنا، وضرائب سيوفنا، ونحن نرجو أن يكون أجر هذه النعمة كافلها، فاحمدوا الله فإن حمده يُتم النعم، وأشكروه فإن شكره يوجب المزيد.[٣]

ووجه الحجاجُ إليه الجرّاحَ بن عَبْدالله يستبطئُه في مناجَزة القوم. وكتب إليه: أما بعد، فإنك جَبيتَ الخراج بالعلل، وتحصنتَ بالخنادق، وطاولت القوم وأنت أعزُّ ناصراً، وأكثر عَددا، وما أظنُّ بك مع هذا معصيةً ولا جبْناً، ولكنك اتخذتهم أُكَلاً، وكان بقاؤهم أيْسرَ عليك من قتالهم. فناجزْهم، وإلا أنْكرتني. والسلامُ.

فقال المهلب للجرّاح: يا أبا عقبة. واللّه مَا تركتُ حيلةً إلاَّ احتلْتُها، ولا مكيدة إلا أعملتُها، وما العجبُ من إبطاء النصر، وتراخي الظفر، ولكن العجب أن يكون الرأيُ لمنْ يملكه دون مَن يبصرهُ.

ثم ناهضهم ثلاثة أيام يُغاديهم القتال، ولا يزالون كذلك إلى العصر، حتى قال

١) أخذها من قولهم: الزبيبتان: الزَبَدَتانِ في الشِدقين؛ يقال: تكلم فلان حتى زَبَّبَ شدقاه، أي خرج الزَّبَدُ عليهما.
٢) الآبي، مرجع سابق، ص ٤٨.
٣) البصائر والذخائر ج٤ ص ١٣٢.

الجرّاح: قد أعذرت وينصرفُ أصحابهُ وبهم قَرْح، وبالخوارج قَرْح وقتل.

وكتب المهلب إلى الحجاج: أتاني كتابُك: تستبطئُني في لقاء القوم، على أنك لا تُظنُّ بي معصيةً ولا جبْناً. وقد عاتبْتني مُعاتبة الجَبان، وأوعدتني وعيدَ العاصي. فسل الجراح. والسلام.

وكتب إليه الحجاجُ: أما بعد، فإنك تتراخى عن الحرب حتى يأْتيك رُسلي فيرجعوا بُعذْرك، وذاك أنك تُمسك حتى تبرأ الجِرَاحُ، وتُنَسّي القتْلى، ويجُمَّ الناسُ، تلْقاهم فتحتملَ منهم مثْلَ ما يحتملون منك من وَحشة القتل، وألم الجراح. ولو كُنت تلْقاهُم بذلك الجِد لكان الداءُ قدْ حُسِم، والقرنُ قد قُصِم. ولعَمْري ما أنْت والقومُ سواء؛ لأن مِنْ ورائك رجالاً، وأمامكَ أموالاً، وليس للقوم إلا ما معهم، ولا يُدرَكُ الوجيفُ بالدبيبِ ولا الظفَر بالتعذير.

فكتب المهلب إليه: أما بعدُ. فإنّي لم أعط رسلك على قول الحقِّ أجراً، ولم أحتجّ منهم مع الشهادة إلى تلقين. ذكرت أني أجمُّ القوم، ولا بد من راحة يستريح فيها الغالب، ويحتال فيها المغلوب، وذكرتَ أن في الجمام ما يُنسي القتلى، ويُبرِئُ الجراح. وهيهات أنْ يُنَسى ما بيننا وبينهم، تأْبى ذلك قتلى لم تُجَنّ، وقروح لم تُتَقرف. ونحن والقوم على حَالة وهم يرقبُون منا حَالات، وإن طمعُوا حاربوا، وإن مَلُّوا وقفوا، وإن يئسوا انصرَفوا، وعلينا أن نقاتلهم إذا قاتلوا، ونتحرز إذا وَقفُوا، ونطلب إذا هربوا، فإنْ تركتني والرأي كان القرن مفصُوما، والداءُ - بإذن الله - محسُوماً، وإن أعجَلتني لم أطعك، وَلم أعص، وجعلت وجهي إلى بابك وأنا أعوذ بالله من سَخط الله عزّ وجل ومَقت النّاس!

وكان الحجاجُ كتب إلى المهلب وهو في وَجْه الخوارج: أما بعدُ، فإنه بلغني أنك قد أقبلت عَلى جبَاية الخراج، وتركت قتال العدُوِّ. وإني ولَّيْتُك وأنا أرى مكان عبد الله ابن حكيم المجاشعي، وعباد بن حصَين الحَبطي، واخترتُك وأنت من أهل عمان، ثم رجل مِّن الأزد. فالْقهُم يوم كذا في مكان كذا، وإلا أشرعتُ إليك صَدْر الرماح فشاورَ بنيهِ، فقالوا: إنه أميرٌ فلا تغْلُظ عليه في الجواب.

فأجابه المهلبُ: وردَ عليَّ كتابُك، تزعُم أني أقبلتُ على جباية الخراج، وتركتُ

قتال العدُو. ومَن عجز عن جباية الخراج فهُو عَن قتال العدوِّ أعجَزُ. وزعمتَ أنك وليتني، وأنت ترى مكان عَبدِاللّه بن حكيم وعَبادِ بن حصين، ولوْ وليْتهُما لكانا مُسْتحقَّيْن لذلك في فضلهما، وغَنائهما، وبطشهما. وأنك اخترتني -وأنا رجلٌ من الأزد- ولعَمَري إن شراً من الأزد لقبيلةٌ تنازعُها ثلاثُ قبائل لم تستقر في واحدة منهُن. وزعمت أني إن لم ألقهُم في يوم كذا أشرعْت إليّ صَدْر الرُّمْح. فلو فعلت لَقلَبْتُ إليك ظَهْرَ المِجّنِّ، والسلام.[١]

لما ظفر المهلب بالخوارج وفرغ من أمرهم قال الحجاج: الآن يرِد كتاب المهلب طويلاً بوصفه، جامعاً لوصف يشرح أحواله، وإنه لحقيق بكل وصف، وأهل لكل مدح. قال فورد كتابه:

"بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الكافيء بالإسلام فقد ما سواه، المعجل النقمة لمن بغاه، الذي يزيد من شكره، ويرزق من كفره.

أما بعد، فقد كان من أمرنا ما أغنت جملته عن تفصيله. وكنا نحن وعدونا في مدة هذا التنازع على حالتين مختلفتين: يسرنا منهم أكثر مما يسوؤنا، ويسوؤهم منا أكثر مما يسرهم؛ على شدة شوكتهم، واجتماع كلمتهم، وانزعاج القلوب لمخافتهم؛ حتى نام بذكرهم الرضيع، وأصم لخوفهم السميع. فانتهزت منهم الفرصة عند إمكانها، بعد أن تنظرت وقت إبّانها؛ واستدعى النهل عَلله، وبلغ الكتاب أجله، فقُطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين".[٢]

**وصاياهم:**

للمهالبة -كما لغيرهم من الأمراء والقادة والحكماء- وصايا اتسمت بالإيجاز، والبلاغة، والإقناع، واشتملت على الحكمة، وصقلتها التجربة، ومن وصاياهم:

قال المهلب يوصي ابنه يزيدًا: يا بُنَي إياك والسرعة عند المسألة بنعم، فمدخلها سهل ومخرجها وعر، واعلم أنَّ لا وإن قبحت فربما أروحت، فإذا سئلت ما قدرت

١) الآبي، ج٥، مرجع سابق، ص ٤٥.
٢) أدب الكتاب للصولي ص ١٣٣.

عليه فأطمع ولا توجب، وإذا علمت معذرة فاعتذر، فالإتيان بالعذر الجميل خير من المطل الطويل.[1]

ولما حضرتِ المهلبَ بنَ أبي صُفْرَةَ الوفاةُ، قال لولده وأهله:

"أوصيكم بتقوى الله، وصلة الرحم؛ فإن تقوى الله تُعْقِبُ الجنة؛ وإن صلة الرحم تُنْسِئ الأجل، وتُثري المال، وتجمع الشمل، وتُكَثِّر العدد، وتُعَمِّر الديار، وتُعِزُّ الجانب.

وأنهاكم عن معصية الله -تعالى-؛ فإن معصية الله تعقب النار، وإن قطيعة الرحم تُورِثُ الذلة والقلة، وتُقِلُّ العدد، وتفرِّق الجمع، وتَذَرُ الديارَ بَلَاقِعَ، وتُذْهِب المال، وتُطْمِعُ العدو، وتُبدي العورة.

يا بَنِيَّ، قومَكم قومَكم؛ إنه ليس لكم فضل عليهم، بل هم أفضل منكم؛ إذ فَضَّلُوكم وسَوَّدُوكم، أَوْطَؤُا أعقابكم، وبَلَّغُوا حاجتكم فيما أردتم وأعانوكم؛ فإنْ طَلَبُوا فاطْلُبُوهم، وإن سألوا فاعطوهم، وإن لم يسألوا فابتدؤوهم، وإن شتموا فاحتملوهم، وإن غَشُّوا أبوابكم فلتُفْتَح لهم ولا تُغْلَق دونهم.

يا بَني، إني أُحب للرجل منكم أن يكون لفعله الفضلُ على لسانه، وأكره للرجل منكم أن يكون للسانه الفضل على فعله.

يا بني، اتقّوا الجواب، وزلةَ اللسان؛ فإني وجدت الرَّجُلَ تَعْثُرُ قدمُه فيقوم من زلته وينتعش منها سويًّا، ويزل لسانه فيُوبِقه ويكون فيه هَلَكَتُهُ.

يا بني، إذا غدا عليكم رجل وراح فكفى بذلك مسألةً وتذكرةً بنفسه.

يا بني، ثيابُكم على غيركم أجملُ منها عليكم، ودوابُّكم تحت غيركم أجمل منها تحتكم.

يا بَني، أَحِبُّوا المعروف، وأنكروا المنكر واجتنبوه؛ وآثروا الجود على البخل؛ واصطنعوا العرب وأكرموهم؛ فإن العربي تَعِدُّهُ العِدَةَ فيموت دونك، ويشكر لك،

١) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص ٦٤٨.

فكيف بالصنيعةِ إذا وصلت إليه في احتماله لها وشكره، والوفاءِ منه لصاحبها؟

وأَدُّوا حق الله -تعالى- عليكم؛ فإني قد أبلغت إليكم في وصيتي، واتخذت الله حجة عليكم".[١]

**شعرهم:**

روي لبعض المهالبة شيء من الشعر، منه ما يأتي:

قال المفضل بن المهلب: من الطويل[٢]

هل الجود إلا أن تجود بأنفس ... على كل ماضي الشفرتين قضيب
ومن هَرّ[٣] أطراف القنا خشية الردى ... فليس لحمد صالح بكسوب
وما هي إلا رقدة تورث العلى ... لرهطك ما حنت روائم نيب

وقال أبو الفرج بن الجوزي سمع المهلب فتى يتغنى في جارية له، فقال المهلب:

لعمريَ إني للمحبين راحم ... وإني ببر العاشقين حقيق
سأجمع منكم شمل ودّ مبدّد ... وإني بما قد ترجوان خليق

ثم وهبها له ومعها خمسة آلاف دينار[٤]

وقال أبو عُيينة محمّد بن أبي عُيينة بن المهلّب:

من غُرره المستظرفة قوله:

جسّمي مَعي غَير أن الروح عنْدكمُ ... فالروحُ في غُربةٍ والجِسمُ في وطنِ
فَليعجبِ النـاسُ منّي أن لي بَدَناً ... لا روحَ فيهِ، ولي روحٌ بلا بَدَنِ

وقوله:

١) لباب الآداب لأسامة بن منقذ ص٢٩.
٢) البغدادي، مرجع سابق، ج٢ ص ٥٩.
٣) كره.
٤) ديوان الصبابة ص ٦٠.

أرى عهدَهـــا كـالـورد ليسَ بدائم ولا خيرَ فيمن لا يـدومُ لـــه عهدُ
وعـهـدي لها كـالآسِ حُسناً وبهجةً لهُ نضرة تبقى إذا ما انقضى الوردُ

وقوله:

أبـــوكَ لـنـا غـيـثٌ نعيش بسَيْبه وأنـت جـرادٌ لست تُبقي ولا تَـذَرْ
لـه أثـــرٌ في كـل عـــام يـسـرُّنـا وأنـــتَ تعـفّـي دائـمـاً ذلـك الأثَـرْ

ومن مِلَحِه قوله: ولأُشلِيَنَّ على نِعاجِك ذِيبي[1]

أخوه عبد اللّه بن محمد بن أبي عيينة من قلائده الفاخرة قوله:

هـو الـصَّـبرُ والتسليمُ للّه والرضا إذا نَـزَلَـتْ بـي خُطَّـــةٌ لا أشـاؤهـا
إذا نحن أَبْنـــا سالميـن بأنفُسٍ كِـرام رَجَـتْ أمـــراً فـخـاب رَجـاؤُهـا
فأنفُسُنا خيرُ الغنيمة إنهـــــا تَـؤوبُ وفيـها مـاؤُهـا وحَياؤُهـــا

وقوله أيضاً:

كل المصـائبِ قـد تمـرُّ على الفتى فـتـهـونُ غـيـرَ شـمـاتـةِ الأعـــداءِ

وقوله في الهجاء:

مـــا كـنـــتَ إلا كـلَـحـم مَـيْـت دعـــا إلى أكـلـــه اضـــطـــرارُ[2]

**ما قيل فيهم شعرا:**

من الطبيعي أن يكثر الشعراء من مديح آل المهلب؛ فاللها تفتح اللها، وقد رويت عنهم الأعاجيب في الجود، وقيلت فيهم أشعار كثيرة جودتها شدة المنافسة، وكثرة الهبات، إضافة إلى إعجاب بعض الشعراء بهم، أو افتخارهم بهم، ومن تلك الأشعار:

قال ابن دريد في مقصورته:[3]

١) لباب الآداب للثعالبي ص ١٥٨.
٢) لباب الآداب للثعالبي ص ١٥٩.
٣) ديوانه ص ١٦٢.

وقد سما قبلي يزيدٌ طالباً ... شأو العلى فما وهى ولا ونى
فاعترضت دون التي رام وقد ... جَدَّ به الجِد اللُّهَيم الأربى

قال الفرزدق:[١]

لأمْدَحَنّ بَني المُهَلَّب مِدْحَةً ... غَرّاءَ ظَاهِرَةً على الأشْعَارِ
مِثْلَ النّجُوم، أمامَها قَمَرٌ لهَا ... يجلو الدُّجى وَيُضيءُ لَيلَ السارِي
وَرِثوا الطِّعانَ عن المُهلّب وَالقرَى ... وَخَلائِقاً كَتَدَفّقِ الأنْهَارِ
أمّا البَنُونَ، فإنّهُمْ لمْ يُورَثُوا ... كَتُرَاثِه لبَنِيه يَومَ فَخَارِ
كلَّ المكارِم عَن يَديه تَقَسّموا ... إذْ ماتَ رِزْقُ أرَامِلِ الأمْصَارِ
كانَ المُهَلَّبُ للعِرَاقِ سَكِينَةً ... وَحَيَا الرّبيعِ وَمَعْقِلَ الفُرَّارِ
كَمْ مِنْ غنىً فَتَحَ الإلَهُ لهم به ... وَالخَيْلُ مُقْعَيَةٌ على الأقْتَارِ
وَالنَّبلُ مُلجَمَةٌ بِكُلّ مُحَدرَج ... مِنْ رِجلِ خاصِبَة من الأوْتَارِ
أمّا يَزِيدُ، فإنَّهُ تَأبَى لَهُ ... نَفْسٌ مُوَطَّنَةٌ على المِقْدَارِ
وَرّادَةٌ شُعَبَ المَنيّة بالقَنَا ... فَيُدِرُّ كُلّ مُعَانِد نَعّارِ
شُعَبَ الوَتِين بِكُلّ جائِشَة لهَا ... نَفَثٌ يَجيشُ فَماهُ بالمِسْبارِ
وَإذا النفوسُ جشأنَ طامنَ جأشَهَا ... ثِقَةً بِهَا لحِمَايَة الأدْبَارِ
إني رَأيْتُ يَزِيدَ عِنْدَ شَبَابِه ... لَبِسَ التّقَى، وَمَهَابَةَ الجَبّارِ
مَلِكٌ عَلَيْه مَهَابَةُ المَلِك التقى ... قَمَرُ التّمام به وَشَمْسُ نَهارِ
وَإذا الرّجالُ رَأوْا يَزِيدَ رَأيتَهُمْ ... خُضُعَ الرّقابَ نَوَاكِسَ الأبصَارِ
لأغَرَّ يَنْجَابُ الظّلامُ لِوَجْهِه ... وَبه النّفوسُ يَقَعنَ كلَّ قَرَارِ
أيَزِيدُ إنّكَ للمُهَلّب أدْرَكَتْ ... كَفّاك خَيْرَ خَلائِقِ الأخْيَارِ
مَا مِنْ يَدَيْ رَجُلٍ أحَقّ بما أتَى ... من مَكْرمات عَظايم الأخطارِ
مِن ساعِدَينِ يَزِيد يَقدَحُ زَندَه ... كَفّاهُما وَأشَدّ عَقْدِ جِوَارِ

١) ديوانه ص ٢٦٥ وما بعدها.

وَلَـوَ أنّهَـا وُزِنَـتْ شَـمَام بِحِلْمِه ... لأمَـالَ كُـلَّ مُـقِيمَـةٍ حَضْـجَارِ

وَلَـقَـدْ رَجَـعـتَ وَإنّ فـارِسَ كُلّهَـا ... مِـنْ كُـرْدِهـا لخـوَائِـفُ المُـرّارِ

فَـثَرَكْـتَ أخْـوَفَـهـا وَإنّ طَـرِيقَـهـا ... لَـيَـجُـوزُهُ النّـبَـطِـيُّ بـالقِـنْـطَـارِ

أمّـا الـعـرَاقُ فلمْ يكُـنْ يُـرْجَـى بـه ... حَـتـى رَجَـعْـتَ، عَـوَاقِـبُ الأطْـهـارِ

فَـجَـمَـعـتَ بَـعْـدَ تَـفَـرّقٍ أجـنـادَهُ ... وَأقَـمْـتَ مَـيْـلَ بِـنَـائِـهِ المُـنْـهَـارِ

وَلْـيَـنـزِلَـنّ بجـيـلِ جَـيْـلانَ الّـذي ... تَـرَكَ البُـحَـيْـرَةَ، مُحصَدَ الأمْـرَارِ

جَيشٌ يَسيرُ إلَيـه مُلتمسَ القِرَى ... غَـضْـبـاً بِـكُـلّ مَـسَـوَّمٍ جَـرّارِ

لَجِـبٍ يَضِيقُ به الفضَاءُ إذا غـدَوْا ... وَأرَى الـسّـمَـاءَ بِـغَـابَـةٍ وَغُـبَـارِ

فـيـه قَـبـائِـلُ مِـنْ ذَوِي يَمَـنٍ لَـهُ ... وَقُـضَـاعَـةَ بـنِ مَـعَـدّهـا وَنِـزَارِ

وَلَـئِـنْ سَـلِمتَ لتَعطفنّ صُـدورَهـا ... لـلـتُّـرْكِ، عِـطْـفَـةَ حَـازِمٍ مِـغْـوَارِ

حَـتـى يَـرَى رَتْـبِـيـلُ مِـنْـهَـا غَـارَةً ... شَـعْـوَاءَ غَـيْـرَ تَـرَجّـمِ الأخْـبَـارِ

وَطِـئَـتْ جِـيـادُ يَـزِيـدَ كُـلَّ مَـدِيـنَـةٍ ... بَـيْـنَ الـرُّدُومِ وَبَـيـنَ نَـخـلٍ وَبَـارِ

شُـعْـثـاً مُـسَـوَّمَـةً، عَـلـى أكْـتَـافِـهَـا ... أُسْـدٌ هَـوَاصِـرُ لـلـكُـمَـاةِ ضَـوَارِ

مـا زَالَ مُـذْ عَـقَـدَتْ يَـداهُ إزَارَهُ ... فَـدَنَـا فـأدرَكَ خَـمسَـةَ الأشْـبَـارِ

يُـدنـي خَـوَافِـقَ مـن خَـوَافِـقَ تَلتَقِي ... فِي كُـلّ مُـعـتَـبَـطِ الـغُـبـارِ مُـثَـارِ

وَلَـقَـدْ بَـنـى لبَـنـي المُـهَـلّـبِ بَـيتَـهـمْ ... فِي المَـجـدِ أطـوَلُ أذرُعٍ وَسَـوَارِي

بُـنِـيَـتْ دَعَـائِـمُـهُ عـلـى جَـبَـلٍ لـهـمْ ... وَعـلَـتْ فَـوَارِعُـهُ عـلـى الأبْـصَـارِ

تَـلـقَـى فَـوَارِسَ لـلـعَـتِـيـكِ كـأنّـهُـمْ ... أُسْـدٌ قَـطَـعْـنَ سَـوَابِـلَ السُّـفّـارِ

ذَكَـرَيـنِ مُـرْتَـدِفَـيـنِ كُـلَّ تَـقَـلّـصٍ ... ذَكَـرٍ شَـدِيـدِ إغـارَةِ الإمْـرَارِ

حَملوا الظُّبات على الشؤون وأقسموا ... لَـيُـقَـنـعُـنّ عِـمَـامَـةً الجَـبّـارِ

صَـرَعـوهُ بـيْـنَ دكـادِكٍ فِي مَـزْحَـفٍ ... لـلـخَـيْـلِ يُـقـحِـمُـهُـنّ كـلَّ خَـبَـارِ

مُـتَـقَـلّـدي قَـلَـعِـيّـةً وَصَـوَارِمٍ ... هـنـديّـة، وَقَـديمَـة الآثَـارِ

وَعَـوَاسِـلَ عَـسْـلَ الـذّئـابِ كأنّـهـاً ... أشْـطَـانُ بَـائِـنَـةٍ مِـنَ الآبَـارِ

يَقصمنَ إذْ طَعَنوا بها أقرانَهُمْ ... حَـلَـقَ الـدّرُوعِ وَهـنّ غَـيرُ قِـصَـارِ

تَـلْـقَـى قَـبَـائِـلَ أمّ كُـل قَـبِـيـلَـةٍ ... أُمُّ الـعَـتِـيـكِ بِـنَـاتِـقٍ مِـذْكَـارِ

ولَـدَتْ لأزْهَـر كـلَّ أصْـيَـدَ يَبتني بـالسّـيـفِ يَـوْمَ تَـعـانُـق وَكـرَارِ
يَحمي المكـارِمَ بالسّيوفِ إذا عَلا صَـوْتُ الظُّبات يُـطـرْنَ كُـلَّ شـرَارِ
مـنْ كـلّ ذات حَـبَـائـك وَمُـفَـاضَـة بَـيْـضَـاءَ سَـابِـغَـة على الأظْـفَـارِ
إنّ الـقُـصُـورَ بـجـيـلِ جَـيـلانَ الّتي أعْـيَـتْ مَـعـاقِـلَـهَـا بَـنـي الأحْـرَارِ
فُـتِـحَـتْ بسَـيـفِ بَـنـي الْمُـهَـلّـب، إنّـهـا للّه عـادَتُـهُـمْ عـلـى الـكُـفّـارِ
غَـلَـبـوا بـأنّـهـمُ الـفَـوَارِسُ في الـوَغَـى والأكْـثَـرُونَ غَـداةَ كُـلِّ كِـثـارِ
وَالأحـلَـمـونَ إذا الحُـلـومُ تـهَـزْهـزَتْ بـالـقَـوْم لَـيـسَ حُـلُـومُـهُـمْ بِصغارِ
وَالـقـائـدُونَ إذا الجـيـادُ تَـرَوّحَـتْ وَمَـضَـيـنَ بَعد وَجـىً على الحـزْوَارِ
حـتـى يَـرِعْـنَ وَهُـنّ حَـوْلَ مُـعَـمَّـم بـالـتّـاجِ في حَـلَـقِ الْمُـلـوكِ نُـضَـارِ

تذاكر أهل البصرة من ذوي الآداب والأحساب في أحسن ما قاله المولدون في حسن الجوار من غير تعسف ولا تعجرف، فأجمعوا على بيتي أبي الهندي وهما:[١]

نَـزَلـتُ عَـلـى آلِ الْمُـهَـلّـب شـاتـيـاً غَـريـباً عَـنِ الأَوطـانِ في زَمَـنِ المحلِ
فَمـا زالَ بي إحسـانُهم وافتِقـادُه وَبِـرُّهُـم حَـتّـى حَـسِـبتُـهُـمُ أَهـلي

كان ثابت قطنة مع يزيد بن المهلب في يوم العقر، فلما خذله أهل العراق وفروا عنه فقتل، قال ثابت قطنة يرثيه:[٢]

كل القبـائل بايَعـوك على الذي تـدعـو إليـه وتـابَـعـوك وسـاروا
حتى إذا حَـمِـي الـوَغَـى وجعلتَهم نـصـبَ الأسـنَّـة أسـلـموك وطـاروا
إن يقتلـوك فـإنَّ قتلَك لم يكـن عـاراً عـليـك وبـعـضُ قـتـلٍ عـار

قال الأصمعي: قدم على يزيد بن المهلب قوم من قضاعة من بني ضبة، فقال رجل منهم:

١)
٢) الأغاني ج١٤ ص ٢٧٠.

والله مـــا ندري إذا ما فاتنـــا طلب إليـــك من الذي نتطلب
ولقد ضربنـا في البلاد فلم نجد أحداً سواك إلى المكارم ينسب
فاصبر لعادتنـــا التي عودتنـــا أو لا فأرشدنـــا إلى من نذهب

فأمر له بألف دينار. فلما كان في العام المقبل وفد عليه فقال:

مـالي أرى أبوابهم مهجـــــورة وكـأن بـــابك مجمع الأســـواق
حابَوك أم هابوك أم شاموا الندى بيديك فاجتمعـــوا من الآفـاق
إني رأيتك للمكـــارم عـــاشقـاً والمكرمـــات قليـلة العشـاق

فأمر له بعشرة آلاف درهم.[1]

قصيدة لربيعة الرقي مدح فيها يزيد بن حاتم المهلبي، وهذه أبيات من أولها:[2]

حلفت يمينـــا غير ذي مثنويـــة يميـــن امرئ آلى بهـــا غيـــر آثم
لشتـــان مـا بين اليزيدين في الندى يزيـــد سليـم والأغـر ابـن حـــاتم
يزيد سليم سـالم المـــال والفتـــى أخـــو الأزد للأموال غير مســـالم
فلا يحسب التمتـــام أني هجـــوته ولكنني فضلت أهـــل المكـــارم
فيا أيها الساعي الذي ليس مدركا بمسعاته سعي البحور الخضـــارم
ألا إنمـــا آل المـهلب غـــرة وفي الحرب قـــادات لكم بالخزائـم
هم الأنف والخرطوم والناس بعدهم مناسم والخرطـوم فوق المنـــاسم
قضيـت لكم آل المـهلب بالعـــلى وتفضيلكم حقًّا على كل حـــاكم
لكـم شيم ليـست لخلقٍ ســـواكم مناعيش دفّاعون عن كل جـــارم

قال أبو حاتم عن الأصمعي: أخبرني من حضر جَنازة رَوْح بن حاتم، وباكيته تقول:[3]

---

١) العقد الفريد ج٤ ص٣٨.
٢) ديوانه ص ٣٤.
٣) جمهرة اللغة، باب الباء والضاد وما بعدهما.

أسَـــدٌ أضْـــبَـــط يمشـــي بـــين طَـرْفـــــاءَ وغِيـــــــلِ
لُـبْسُـــــــه مـــن نســـج داو دَ كضَـحْـضـــــاحِ المَســيـلِ

قال ابن المبارك يمدح يزيد بن حاتم بن قَبيصة بن المهلب بن أبي صفرة: الكامل:[١]

وإذا تُبـــاع كريمـــةٌ أو تُشْتَـرى فســواك بائعُهـــا وأنـت المشتري
وإذا تـوعّـرَت المســالكُ لم يكـن فيهـــا السبيـــلُ إلى نـدَاك بأَوْعَـر
وإذا صَنَعْتَ صنيـعةً أتمَمْتَهـا بيدَيْـن ليـس نِدَاهُمـــا بمكدَّر
وإذا هَـمَـمْتَ لمُعْتَفيـك بنـــائل قـــال النـدى فأطعْتَـــه لـك: أكْـثِر
يـا واحـدَ العـرب الـذي مـا إن لهم من معـدَل عنـــه ولا مـن مَقْصَـرِ

قدم على مَخلد بن يزيد بن المهلب رجل كان قد ازداره فأجازه، فقال: ألم تكن قد أتيتنا فأجزناك؟ قال: بلى. قال: فما ردَّك؟ قال: قول الكميت فيك:[٢]

سـألنـــاه الجزيـــل فـما تلكّى وأعـطـى فـــوق مُنْـيتنـــا وزادا
وأحســـن ثـم أحســـن ثـم عـدنـا فـأحســـن ثـم أحســـن ثـم عـــادا
مـــراراً لا أعـــود إليـــه إلا تبسم ضـاحـكاً وثـنـى الـوسـادا

وحبس الحجاج بن يوسف يزيد بن المهلب لباق عليه كان بخراسان، وأقسم ليستأدينّه كل يوم مائة ألف درهم! فبينما هو قد جباها له ذات يوم؛ إذ دخل عليه الأخطل فأنشده:

أبـا خالد ضاقت خراسان بعدكم وقـــال ذوو الحـــاجات أين يزيـــد؟
ومـــا قطرت بالشرق بعدك قطرة ولا اخضرّ بالمرّيـــن بعدك عـــــود
ومـــا لسريـر بعد بُعدك بهجـــة ومـــا لجـــواد بعد جـودك جـود

فقال: يا غلام أعطه المائة ألف درهم؛ فإنا نصبر على عذاب الحجاج، ولا نخيّب الأخطل. فبلغت الحجاج، فقال: لله در يزيد! لو كان تاركاً للسخاء يوماً لتركه اليوم

١) زهر الآداب ج٤ ص ١١٤٩.
٢) غرر الخصائص الواضحة، ص ٣٣٠.

وهو يتوقع الموت.[١]

وورد أن المنصور قال لبعض ولد المهلب بن أبي صفرة: ما أسرع الناس إلى قومك! فقال: يا أمير المؤمنين[٢]

إن العرانين تلقاها محسدَّة ولا ترى للئام الناس حسادا
كم حاسد لهم قد رام سعيهم ما نال مثل مساعيهم، ولا كادا

رأى بكير بن الأخنس المهلب وهو غلام فقال:

خذوني به إن لم يفق سرواتهم ويبرع حتى لا يكون له مثل!

وكان كما قال.[٣]

قال حمزة بن بِيض في مَخْلَد بن المهلب:[٤]

بلغتَ لعشر مضت من سِنِيـ ـك ما يبلغ السيد الأشيب
فهَمّك في معضلات الأمو ر وهم لِداتك أن يلعبوا

للكميت قصيدة يمدح بها مخلد بن يزيد بن المهلب، يقول فيها:[٥]

قادَ الجيوشَ لخمسَ عَشْرةَ حجَّةً ولِداتُهُ عن ذاك في أشغال
قَعَدتْ بهم هِماتُهُمْ وسَمَتْ به همُمُ الملوك وسَوْرة الأبطال
فكأنما عاشَ المهلَّبُ بينهمْ بأغرَّ قاسَ مثالَه بمثالِ
في كَفِّه قَصَبات كلّ مُقَلَّد يومَ الرِّهان وفوزُ كلِّ نِصَالِ[٦]
ومتى أزِنْك بمعشر وأزنهمُ بك ألْف وزنك أرجحَ الأثقالِ

١) نفسه، ص ٣٤٢.
٢) الوشّاء، مرجع سابق، ص ٤.
٣) الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ج١، ص ١٨٠.
٤) ربيع الأبرار ج٣ ص ٤٩.
٥) الأغاني ج١٦ ص ٤٤١.
٦) في الحماسة البصرية نضال بالمعجمة، وهو أوضح.

وقال الفرزدق يرثيه [أي مخلد بن يزيد]: من الطويل[١]

وما حملت أيديهم من جنازة ... وما ألبست أثوابها مثل مخلد
أبوك الذي تُستهزَم الخيلُ باسمه ... وإن كان فيها قيد شهر مطرد
وقد علموا إذ شد حقويه أنه ... هو الليث ليث الغيل لا بالمُعرِّد

قال عمر بن لجأ التيمي:[٢]

آلُ المُهَلَّب قَوْمٌ خُوِّلُوا كَرَمَا ... ما نالَهُ عَرَبيٌّ لا ولا كادَا
لو قيلَ للمَجْد: حدّ عَنهمْ وخَلِّهِمُ ... بما احْتَكَمْتَ من الدنْيا، لما حادَا
إنَّ المكارِمَ أَرْوَاحٌ يكُونُ لها ... آلُ المُهَلَّبِ دُونَ النَّاسِ أَجْسادَا
آلُ المُهَلَّبِ قَوْمٌ إنْ مَدَحْتُهُمُ ... كانُوا الأَكارِمَ آباءً وأَجْدادا
إنَّ العَرانِينَ تَلْقاها مُحَسَّدَةً ... ولا تَرَى لِلئامِ النَّاسِ حُسَّادا

لما قدم المهلب على الحجاج بعد حرب الأزارقة أجلسه على سريره، وقال: هذا كما قال الشاعر: [من البسيط]

فقلدوا أمركم لله دركم ... رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفاً إن رخاء العيش ساعده ... ولا إذا عض مكروه به خشعا

فقال رجل ممن كان مع المهلب: والله لكأني أسمع قطري بن الفجاءة وهو يقول: لله در المهلب، والله ما حاربنا مثله، هو كما قال لقيط الإيادي:

صونوا جيادكم واجلوا سلاحكم ... ثم افزعوا قد ينال الأمن من فزعا
وقلِّدوا أمركم لله درَّكم ... رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفاً إنْ رخاء العيش ساعده ... ولا إذا عضَّ مكروه به خشعا
ما زال يحلب صرف الدهر أشطره ... يكون متبِعاً طوراً ومتّبَعا
حتى استمرّت على شزر مريرته ... مستحكم السنّ لا قحماً ولا ضرعا

١) مختصر تاريخ دمشق ج٢٤ ص ١٤٧.
٢) الحماسة البصرية ج١ ص ١٤١.

فأعجب الحجاج موافقة قطري إياه.[1]

قالَ الكَلْبِيُّ: أَنْشَدَ زِيَادٌ الأَعْجَمُ يَزِيْدَ بنَ المُهَلَّب:

وَمَـا مَـاتَ المُـهَـلَّـبُ مُـذْ رَأَيْـنَـا ... عَـلَـى أَعْـوَادِ مِـنْـبَرِهِ يَـزِيْـدَا
لَـهُ كَـفَّـانِ كَـفُّ نَـدًى وَجُـوْدٍ ... وَأُخْـرَى تُمْـطِـرُ العَـلَـقَ الحَـدِيْـدَا

فَأَمَرَ لَهُ بِأَلْفِ دِيْنَارٍ.[2]

قول الأشقريّ وقد مرَّ بقبر المهلّب بن أبي صفرة فنفرتْ ناقتُهُ، فقال:[3]

لحـاك اللهُ يـا شـرّ الـبَرايـا ... أعـن قـبر المـهـلَّـب تَـنـفـرينـا
فـلـولا أنَّـنـي رجـلٌ غـريـبٌ ... لـكـنـتِ عـلـى ثـلاثٍ تَحْجُلينا

قال كعب بن الأشقريّ في المغيرة بن المهلَّب:[4]

كم حاسد لك قد عَطلتَ همَّتَهُ ... مُغرًى بشتم صروف الدَّهر والقدرِ
كـأنَّـمـا أنـت سـهـمٌ في مَفاصله ... إذا رآكَ ثـنَـى طَـرْفـاً عـلـى عَـوَرِ
كم حسرة منك تَـرْدِي في جَوانحه ... لها على القلبِ مثلُ الوخْز بالإبرِ
أنـتَ الـكـريمُ الَّـذي لا شـيءَ يُشبهُهُ ... لا عيبَ فيك سوَى أنْ قيلَ من بشَرِ

ومن المراثي الجِياد قصيدة زياد الأعجم يرثي المغيرة بن المهلَّب، فاستنشده المهلَّب هذه القصيدة حتَّى أتى على قوله:

فـإذا مـررتَ بـقـبره فـاعْـقِـرْ بِـهِ ... كُـومَ الـهِـجـان وكـلَّ طِـرفٍ سـابِحِ

فقال له المهلَّب: فهل عقرتَ عليه، يا أبا أُمامة، فرسك؟ قال: لا، قال: ولمَ؟ قال: لأنِّي كنت على مُقْرِف ولو كنتُ على عتيق لفعلت، فاستحسن المهلَّب قوله وَقال لمن

١) مختصر تاريخ دمشق ج ٢٦ ص ٤٠.
٢) الذهبي، مرجع سابق، ص ٥٠٤.
٣) الأشباه والنظائر ج٢ ص ٢٣٤.
٤) نفسه، ص ٣٠٦.

حضر مجلسه من ولده ومواليه: ليُهد كلُّ واحدٍ منكم إلى زياد فرساً من خيله، فيقال إنَّه انصرف بأكثر من مائة فرس، وأوَّل هذه القصيدة المختارُ منها قوله:[١]

قلْ للقوافلِ والغُزاة إذا غَزَوا ... والباكرين وللمُجِدّ الرَّائحِ
إنَّ السماحةَ والمُغيرةَ ضُمِّنا ... قبراً بمروَ على الطَّريقِ الواضحِ
فإذا مررتَ بقبرِهِ فاعْقِرْ بهِ ... كُومَ الهجانِ وكلَّ طرفٍ سابحِ
وانْضَحْ جوانبَ قبرِهِ بدمائها ... فلقد يكون أخا ندًى وذبائحِ
وإذا يُناحُ على فتًى فتعلَّمَنْ ... أنَّ المغيرةَ فوق نَوح النَّائحِ
وأرَى المكارمَ يوم زِيلَ بنَعْشه ... زالتْ بفضلِ مكارمٍ ومَمادحِ
فكفَى لنا حَزَناً ببيتٍ حَلَّهُ ... أُخرى الزَّمان فليس عنه ببارحِ
لعَفَتْ منابرُهُ وحُطّ سُروجُهُ ... عن كلِّ طامحةٍ وطِرْفٍ طامحِ
ماتَ المغيرةُ بعد طولِ تعرُّضٍ ... للموتِ بين أسنَّةٍ وصفائحِ
والقتلُ ليس إلى القتالِ ولا أرَى ... حَيّاً يؤخّرُ للشَّفيقِ النَّاصحِ
للّه درُّ منِيَّةٍ فاتتْ به ... فلقد أراهُ يردُّ غَرْب الجامحِ
الآنَ لمَّا كنتَ أكملَ مَن مَشَى ... وافتَرَّ نابُكَ عن شَباة القارحِ
وتكامَلَتْ فيك المروءةُ كلّها ... وأعنْتَ ذلك بالفَعال الصَّالحِ
فانْعَ المغيرةَ للمُغيرة إذ بدتْ ... شَعواءَ مُجْحِرةً نُباحَ النَّابحِ
صفَّانِ مختلفانِ حين تلاقَيا ... أبُوا بوجْهٍ مُطلِّقٍ أو ناكحِ
تَشفي بحِلْمك لابْنِ عمِّك جهلَهُ ... وتَرُدُّ عنه كفاحَ كلّ مُكافحِ
وإذا الأمورُ على الرِّجالِ تشابَهَتْ ... وتُوُزِّعتْ بمغالقٍ ومَفاتحِ
فتَلَ السَّحيل بمبْرَم ذي مرَّة ... دون الرِّجال بفضل عقلٍ راجحِ
صلٌّ يموتُ سليمُهُ قبلَ الرُّقَى ... ومُخاتلٌ لعدوّه بتصافُحِ
إنَّ المَهالبَ لا يزالُ لهم فتًى ... يمري قوادمَ كلّ حربٍ لاقحِ
ملكٌ أغرُّ متوَّجٌ يَسمولهُ ... طرفُ الصَّديق وغُضَّ طرفُ الكاشحِ
رفَّاعُ ألوية الحروبِ إلى العِدَى ... بسُعود طيرِ سوانحٍ وبَوارحِ

١) نفسه، ص ٣٥٧.

وأنشد للطرماح يمدح يزيد بن المهلب:[1]

حَـمّـال أثـقـالِ ديـات الـثـأى  عـن عـدَفِ الأصـل وجشّـامها

لحمزة بن بيضٍ في يزيد بن المهلّب مختارةٌ يقول فيها:[2]

أقـولُ لمّـا رأيـتُ محبِسَـه  وعـضَّ منّـى بـالـغـارب القَتَبُ
أُغـلـقَ دون السـمَّاح والجـود والـ  ـنَّـجـدة بـابٌ خـروجـهُ أشـبُ
إن مـتَّ مـات الـنـدى يـزيـدُ فـلا  تُـودِ ولا يُـودِ بـحـرُك اللّـجَبُ
أصبحَ في قيدك السَّماحةُ والحا  مـل لـلـمـعـضـلاتِ والحـسَـبُ
فـزتَ بـقِـدح الـنَّـدى عـلـى مـهـلٍ  وقـصَّـرتْ دون سَـعـيـك الـعـربُ
يـزيـدُ أنـت الـربـيـعُ نـأمُـلُـه  يـرجـوك منّـا ذو الأهـل والـعَـزَبُ
ابـنُ ثـلاثٍ وأربـعـينَ مـضَـتْ  لا ضَـرَعٌ واهـنٌ ولا ثـلِـبُ
ولا بَـطِـرٌ إن تـتـابـعَـتْ نـعـمٌ  وصـابـرٌ في الـبـلاء محـتـسِـبُ

قام أعرابي بين يدي داود بن المهلب، وقال: إني قد مدحتك فاسمع. قال: على رسلك، ثم دخل بيته فتقلد سيفه وخرج، ثم قال: قل فإن أحسنت حملناك وإن أسأت قتلناك، فأنشد:

أمـنـت بـداود وجـود يمـيـنـه  من الحدث المخشيّ والبؤس والفقر
وأصـبـحـت لا أخـشـى بـداود كبوة  من الـدهـر لـما أن شـددت بـه أزري
لـه حـكـم دواد وصـورة يوسف  ومـلـك سـلـيـمـان وعـدل أبـي بكر
فتى تفرق الأمـوال من جود كفه  كما يفرق الشيطان من ليلة القدر

فقال له: قد حملناك، فإن شئت على قدرنا، وإن شئت على قدرك. قال: بل على قدري. فأعطاه خمسينًا. فقال له جلساؤه: هلا احتكمت على قدر الأمير! قال: لم يكن في ماله ما يفي بقدره. فقال له داود: أنت في هذا أشعر منك في شعرك، وأمر

١) العباب الزاخر، ج١، ص ٤٧٢.
٢) المصون في الأدب، ص ١٣٤.

له بمثل ما أعطاه.[١]

وحدثنا إبراهيم بن محمد بن عرفة الأزدي، قال: حدثنا عبيد الله بن إسحاق بن سلام، قال: أتى الكميت باب مخلد بن يزيد بن المهلب يمدحه، فصادف على بابه أربعين شاعراً، فقال للآذن: استأذن لي على الأمير. فاستأذن له عليه فأذن له، فقال له: كم رأيت بالباب من شاعر؟ قال: أربعين شاعراً، قال: فأنت جالب التمر إلى هجر، قال: فإنهم جلبوا دقلاً وجلبت أزاذاً، قال: فهات أزاذك، فأنشد:

هلا سألت منازلاً بالأبرق ... درست فكيف سؤال من لم ينطق
لعبت بها ريحان ريح عجاجة ... بالسافيات من التراب المعنق
والهيف رائحةٌ لها ينتاحها ... طَفَل العشي بذي حناتم شرّق
تصل اللقاح إلى النتاج مزيةً ... لحقوق كوكبها وإن لم يحقق
غيّرن عهدك بالديار ومن يكن ... رهن الحوادث من جديدٍ يخلق
إلا خوالد في المحلة بيتها ... كالطيلسان من الرماد الأورق
متبجحاً ترك الولائد رأسه ... مثل السواك ودمه كالمهرق
دار التي تركتك غير ملومة ... دنفاً فأرع بها عليك وأشفق
قد كنت قبل تتوق من هجرانها ... فاليوم إذ شحط المزار بها تق
والحب فيه حلاوةٌ ومرارة ... سائِلْ بذلك من تطعم أو ذق
ما ذاق بؤس معيشةٍ ونعيمها ... فيما مضى أحدٌ إذا لم يعشق
من قال بتّ أخا الهموم ولم يبت ... غرض الهموم ونصبهن يؤرق

حتى بلغ إلى قوله:

بشّرت نفسي إذ رأيتك بالغنى ... ووثقت حين سمعت قولك لي: ثق

فأمر بالخلع عليه، فخُلع عليه حتى استغاث، فقال: أتاك الغوث، ارفعوا عنه.

كتب العتابي إلى داود بن يزيد بن المهلب: أما بعد، فإني امرؤ في خلتان: حصرٌ

١) الوطواط، مرجع سابق، ص ٣٣٩.

مقيد بالحياء، وعزة نفس شبيهةٌ بالجفاء، ولم أزل أرغب بنفسي في صحبة غطارفة الرجال، وأبناء ذوي الفعال، فوردت العسكر فرفع إلي أقوام منهم من يرتاش حاله، ولا يشرف إلا بماله، ومنهم من أنحل أديمه، ولم يصل قديمه، في طبقات شتى يضيق عنهم المدح، ويتسع فيهم الذم، ورأيت وجوه القبائل تصدر عنك بأنواع الفضائل في حمل الديات، وفضل الهبات، ورأيتك من نبعة أصلها الكرم، وأغصانها الهمم، تثمر الحمد، وترقع المجد، فحططت رحلي بفنائك، وشددت عراه بأطناب وفائك، وقلت في ذلك:

داود خير فتىً يعاذ بركنه ... ملكٌ يجير من الزمان القاسي
كم من يد لك أصبحت مشهورةً ... بيضاء تجلو ظلمة الإبلاس
فلقلما تلقاه إلا واقفاً ... متحرّماً بين الندى والباس

قال ابن الكوفي: لما قدم المهلب على الحجاج بعد فراغه من أمر الأزارقة وقتالهم، أكرمه الحجاج وشرفه وبلغ له الغاية، قال: فخرج الحجاج يوماً آخذاً بيد المهلب، حتى إذا انتهى إلى المحراب قام ثم قال: يا أبا سعيد أنا أطول أم أنت؟ فقال: الأمير أطول مني وأنا أشخص منه، فلما انصرف من صلاته أخذ بيده فأدخله معه ثم قال له: سجستان خير ولاية أم خراسان؟ قال: سجستان قال: وكيف؟ قال: لأنها ثغر كابل وزابلستان، وإن خراسان ثغر الترك، قال أيهما أحب إليك أن يليه رجل مثلك؟ قال: إن أمثالي في الناس لكثير وما نحن حيث يرى الناس، قال: سر إلى سجستان، قال: غيري خير لك فيها مني، وأنا بخراسان خير لك من غيري، قال: ولم؟ قال: لأن بدء نعمة الله علي بعد الإسلام كان في غزوتي خراسان مع الغفاري، وابن أبي بكرة بسجستان خير لك مني؛ لأن أهلها أحبوه لحسن أياديه فيهم، وأنا بخراسان خير منه، قال: وما كنت تلي من أمر الغفاري؟ قال: كنت فيمن صحبه، فلما نزلنا بيهق ودنونا من عدونا قال الغفاري: هل من فوارس ينظرون لنا أمامنا وإن أصابوا أحداً أتوا به، فانتدب منا مع صاحب شرطته عشرة فوارس، فلقينا عدتنا من عدونا، فقال أصحابي: قد عاينّا طلائع القوم فانصرفوا، فقلت:

وما عليكم أن نشامهم؟[١] فأبوا وانصرفوا وتقدمت فقتل الله العشرة على يدي، ثم انصرفت برؤوسهم ودوابهم وأسلابهم معي، وقد كان أصحابي نعوني إلى الغفاري، فلما رآني ضحك وقال:

كبا القوم عند عيان الرهان ... ونال المهلب حظ الفرس
ففاز المهلب بالمكرمات ... وآب عمير بحد التعس

ثم ولاني شرطته وخرج إلي من أمره. فولاه الحجاج خراسان، وكان واليها حتى هلك بها، فقال نهار بن توسعة يرثيه:[٢]

لله دركم غداة دفنتم ... سم العداة ونائلاً لا يحظر
إن تدفنوه فإن مثل بلائه ... في المسلمين وذكره لا يقبر
كان المدافع دون بيضة مصره ... والجابر العظم الذي لا يُجبر
والكافِيَ الثغر المَخوف بحزمه ... وبيمن طائره الذي لا ينكر
أنى لها مثل المهلب بعده ... هيهات هيهات الجناب الأخضر
كل امرئٍ ولي الرعية بعده ... بدل لعمر أبيك منه أعور
ما ساسنا مثل المهلب سائس ... أعفى عن الذنب الذي لا يغفر
لا لا وأيمن في الحروب نقيبةً ... منه وأعدل في النهاب وأوقر
وأشد في حق العراق شكيمةً ... يخشى بوادرها الإمام الأكبر
جمع المروءة والسياسة والتقى ... ومحاسن الأخلاق منها أكثر
تجري له الطير الأيامن عمره ... ولو أنَّه خمسين عاماً يخطر
لما رأى الأمر العظيم وأنه ... سيحل بالمصرين أمر منكر
وأرنَّت العُوذ المطافل حوله ... حذر السباء وزلَّ عنها المئزر
ألقى القناع وسار نحو عصابةٍ ... خُزرٍ فذاقوا الموت وهو مشمّر
كان المهلب للعراق سكينة ... وولي حادثها الذي يستنكر

١) نقترب منهم ونناوشهم.
٢) الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي ص ٦٠٥.

وقدم السعدي أبو وجزة على المهلب بن أبي صفرة، فقال: أصلح الله الأمير. إني قد قطعت إليك الدهناء، وضربت إليك آباط الإبل من يثرب. قال: فهل أتيتنا بوسيلة أو عشرة أو قرابة؟ قال: لا، ولكني رأيتك لحاجتي أهلاً، فإن قمت بها، فأهل ذلك، وإن يحل دونها حائل، لم أذمم يومك، ولم أيأس من غدك. فقال المهلب: يعطى ما في بيت المال. فوجد مائة ألف درهم، فدفعت إليه، فأخذها وقال:[1]

يا من على الجود صاغ الله راحته ... فليس يحسن غير البذل والجود
عمَّت عطاياك من بالشرق قاطبةً ... فأنت والجود منحوتان من عود

وفد زياد الأعجم على المهلب بن أبي صفرة وهو يقاتل الأزارقة بتُوَّج، فأكرمه وأنزله على ابنه حبيب، وقال له أحسن قراه، فبينا هما في بستان إذ غنّت حمامة على فنن؛ فطرب لها زياد، فقال له حبيب: إنها فاقدةٌ إلفًا كنت أراه معها، فقال زياد: هو أشدُّ لشوقها، وأنشأ يقول:

تغنّي أنت في ذممي وعهدي ... وذمَّة والدي أن لا تضاري
فإنَّك كلما غردّت صوتاً ... ذكرت أحبتي وذكرت داري
فإما يقتلوك طلبت ثاراً ... لأنك يا حمامة في جواري

فضحك حبيب ودعا بجلاهق فرماها، فسقطت ميتة، فنهض زياد مغضباً وقال: أخفرت أبا بسطام ذمتي وقتلت جاري، فشكا إلى المهلب، فغضب وقال لحبيب: أما علمت أن جار أبي أمامة جاري، وذمته ذمتي، والله لألزمنك دية الحر والعبد، وأخذها من ماله، ودفعها إلى زياد، فقال:

فلله عينًا من رأى كقضية ... قضى لي بها شيخ العراق المهلب
قضى ألف دينار لجار أجرته ... من الطير إذ يبكي شجاه ويندب

فرفع خبره إلى الحجاج فقال: لشيء ما سوَّدت العرب المهلب! ويروى: ما أخطأت

١) المحاسن والمساوئ ص ١٨٩ (من نسخة الموسوعة الشاملة).

العرب حين جعلت المهلب رجلها.[١]

ومات مخلد بخناصرة، فخرج عمر بن عبد العزيز في جنازته وكان معجباً به؛ لأنه كان سيداً جواداً شجاعاً فصلى عليه، ثم تمثل عند قبره:

على مثل عمرو تهلك النفس حسرة وتضحي وجوه القوم مسودة غبرا

وقال: لو أن الله أراد بيزيد خيراً لأبقى له هذا الفتى.[٢]

ابن حمدون:[٣]

آل المهلب معشر أنجاد ورثوا المكارم والوفاء فسادوا
شاد المهلب ما بنى آباؤه وأتى بنوه ما بناه فشادوا
وكذاك من طابت مغارس نبته وبنى له الآباء والأجداد

لثابت قُطنة، في يزيد بن المهلّب:[٤]

أبا خالد زدت الحياة محبّةً إلى الناس أنْ كنت الأمير المتوَّجا
وحُقَّ لهم أن يرغبوا في حياتهم وبابك مفتوحٌ لمن خاف أو رجا
تزيد الذي يرجو نداك تفضُّلا وتُؤمن ذا الإجرام إنْ كان مُحرجا

قال يزيد بن الحكم ليزيد بن المهلب:[٥]

أبا خالدٍ قد هجت حرباً مريرةً وقد شمّرت حربٌ عوان فشمّر
فإن بني مروان قد زال ملكهم فإن كنت لم تشعر بذلك فاشعر

فقال: ما شعرت؟ فقال:

فعش ملكاً أوْ مت كريماً وإن تمتْ وسيفك مشهورٌ بكفِّك تُعْذَرِ

١) ربيع الأبرار ج١ ص ٣١٤.
٢) التذكرة الحمدونية ج٤ ص ٢١٣.
٣) الزمخشري، ج٥، مرجع سابق، ص ١٠٥.
٤) رسائل الجاحظ ج٢ ص ٨٣.
٥) الأصبهاني، أبو بكر محمد بن داود، الزهرة، ص ٦٩١.

لما بعث خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد أخاه عبد العزيز لقتال الأزارقة، قام إليه عَرْهَمُ أخو بني العدوية، فقال: أصلح الله الأمير، إن هذا الحي من تميم تَئِطّ بقريش منهم رَحِمٌ داسّة ماسّة، وإن الأزارقة ذؤبان العرب وسباعها، وليس صاحبهم إلا المُباكر المُناكر، المُحَرَّب المُجَرَّب، الذي أرضعته الحرب بلبانها، وجَرَّسَته وضَرَّسَته، وذلك أخو الأزد المهلب بن أبي صفرة، والله إن غَثَّك أحبُّ إلينا من سمينه، ولكني أخاف عدوات الدهر وغدره، وليس المجرَّب كمن لا يُعلَم، ولا الناصح المشفق كالغاش المتَّهَم، قال له خالد: اسكت ما أنت وذا. فلما هزمت الأزارقة عبد العزيز وأخذوا امرأته وفرّ عنها، قال عَرْهَم: الطويل[1]

لعمري لقد ناجيت بالنصح خالدًا ... ونـاديـتـه حـتـى أبـى وعـصـانـيـا
ولـجَّ وكـانـت هـفـوة مـن مجـرِّب ... عصاني فلاقى ما يسر الأعاديا
وقلت: الحروريون من قد عرفتهم ... حـمـاة كـمـاة يضـربـون الـهـواديـا
فلا ترسلنْ عبد العزيز وسرِّحنْ ... إليهم فتى الأزد الألـدَّ المساميا
فتىً لا يلاقي الموت إلا بوجهه ... جريئًا على الأعداء للحرب صاليا
فلمّا أبى ألقيت حبل نصيحتي ... على غاربٍ قد كان زَهمان ناويا
وشمَّرتُ عن ساقيَّ ثوبيَ إذ بدت ... كتائبهم تزجي إلينا الأفاعيا
يهزّون أرماحاً طوالاً بأذرع ... شدادٍ إذا ما القوم هزُّوا العواليا

وقال آخر في آل المهلب:[2]

رأيتكم أعزَّ الناس جاراً ... وأمنعهم، إذا عُدُّوا ذِمارا
حمائلكم وإن كانت طِوالاً ... نراها عن شمائلكمْ قِصارا

كان ابن المولى مدَّاحًا لجعفر بن سليمان وقثم بن العباس الهاشميين، ويزيد ابن حاتم بن قبيصة بن المهلب، واستفرغ مدحه في يزيد، وقال فيه قصيدته التي يقول فيها:

١) ذيل الأمالي ص ٣٢.
٢) حماسة القرشي ص ٣٢٦.

يـا واحـدَ الـعـرب الـذي دانـت له ... قَـحـطـانُ قـاطـبـةً وسـاد نِـزارا
إنّي لأرجـو إن لـقـيـتُـك سـالـماً ... ألاّ أعـالـجَ بـعـدَك الأسـفـارا
رِشْـتَ الـنَّـدَى ولـقـد تكسَّر رِيشُه ... فـعَـلا الـنَّـدى فـوقَ الـبـلاد وطـارا

ثم قصده بها إلى مصر وأنشده إيّاها، فأعطاه حتى رضي.

ومرض ابن المولى عنده مرضًا طويلاً، وثقل حتى أشفي، فلما أفاق من علّته ونهض، دخل عليه يزيد بن حاتم متعرفًا خبره، فقال: لوددت والله يا أبا عبد الله ألاَّ تعالج بعدي الأسفار حقًّا ثم أضعف صلته.[١]

لما انصرف يزيد بن حاتم من حرب الأزارقة وقد ظفر، خلع عليه، وعقد له لواء على كور الأهواز وسائر ما افتتحه، فدخل عليه ابن المولى وقد مدحه، فاستأذن في الإنشاد، فأذن له فأنشده:

ألا يـا لـقَـومـي هـل لِمَـا فـات مَطلبُ ... وهل يُـعْـذَرَن ذو صَبْوة وهـو أَشْيَبُ
يـحِـنّ إلى ليلى وقـد شَـطّت النوى ... بليلَى كـمـا حَـنّ الـيـرَاعُ المثـقَـبُ
تـقـرّبـتُ لـيـلـى كـي تُـثـيـب فـزادني ... بِـعـاداً عـلـى بـعـدٍ إلـيـهـا الـتـقـرّبُ
فـداويـتُ وجـدي باجتنابٍ فلم يكن ... دواءً لِمـا ألـقـاه مـنـهـا الـتـجـنُّـبُ
فـلا أنـا عـنـد الـنَّـأي سـالٍ لحبها ... ولا أنـا منها مُشْتَفٍ حين تَصْقَبُ
وما كنت بالراضي بما غيرُهُ الرِّضا ... ولكنني أنـوي الـعـزاءَ فـأُغـلَـبُ
ولـيـلٍ خُـدَارِيّ الـرّواق جَشِمتُه ... إذا هـابـه الـسـارون لا أتـهـيّـب
لأظْـفَـرَ يـومـاً مـن يـزيـد بـن حـاتم ... بحبل جـوارٍ ذاك مـا كـنـتُ أطلبُ
بـلَـوتُ وقـلّـبـتُ الـرجـال كـمـا بَـلاَ ... بكفّيه أوسَـاطَ الـقـداح مُـقـلَّـبُ
وصَـعَّـدني هـمّـي وصَـوَّب مـرّةً ... وذو الـهـمّ يـومـاً مُـصْـعَـدٌ ومُـصـوَّبُ
لأعـرف مـا آتـي فـلـم أر مثله ... من الناس فيما حاز شرقٌ ومغربُ
أكَـرَّ عـلـى جيش وأعـظـمَ هيبةً ... وأوهـبَ في جـود لمـا لـيـس يُـوهـبُ

١) الأغاني ج٣ ص ٢٨٧.

تصدّى رجالٌ في المعالي ليَلْحَقوا مَداك وما أدركتَه فتَذَبْذبُوا
ورُمت الذي راموا فأذللتَ صعبه وراموا الذي أذللتَ منه فأصعَبوا
ومهما تَناولْ من مَنال سَنِيّةٍ يساعدْك فيها المُنْتَمى والمُركّبُ
ومَنصبُ آباءٍ كرام نَماهُم إلى المجد آباءٌ كرامٌ ومنصِبُ
كواكبُ دَجْنٍ كلَّما انقضَّ كوكبٌ بدا منهمُ درٌ مُنيرٌ وكوكبُ
أنارَ به آلَ المهلّب بعدما هَوى مَنكِبٌ منهم بليلٍ ومَنكبُ
وما زال إلْحاحُ الزمان عليهمُ بنائبةٍ كادت لها الأرضُ تَخْرَبُ
فلو أبقتِ الأيامُ حيّاً نَفاسةً لأبقاهمُ للجود نابٌ ومِخْلَبُ
وكنتَ ليومَيْ نِعمةٍ ونِكايةٍ كما فيهما للنّاس كان المهلَّبُ
ألا حبّذا الأحياءُ منكم وحبّذا قبورٌ بها مَوتاكُم حين غُيّبوا

فأمر له يزيد بن حاتم بعشرة آلاف درهم وفرس بسرجه ولجامه وخلعة، وأقسم على من كان بحضرته أن يجيزوه كل واحد منهم بما يمكنه، فانصرف بملء يده.[1]

حدثنا المغيرة بن محمد المهلبي عن رواة باهلة، أن المهلب بن أبي صفرة لما هزم قطري بن الفجاءة بسابور جلس للناس، فدخل إليه وجوههم يهنئونه، وقامت الخطباء فأثنت عليه، ومدحته الشعراء، ثم قام المغيرة بن حبناء في أخرياتهم فأنشده:

حال الشّجا دونَ طَعْم العيش والسهرُ واعتاد عينَكَ من إدمانها الدِّررُ
واستَحْقَبَتْكَ أمورٌ كنتَ تكرهها لو كان ينفعُ منها النّأيُ والحذر
وفي الموارد للأقوام تَهْلُكةٌ إذا المواردُ لم يُعْلم لها صَدَر
ليس العزيزُ بمن تُغْشَى محارِمُه ولا الكريمُ بمن يُجْفى ويُحْتَقَرُ

حتى انتهى إلى قوله:

١) نفسه، ص ٢٩٣، ٢٩٤.

أمسى العبادُ بشرٍّ لا غياثَ لهُمْ ... إلا المهلَّبُ بعد اللَّه والمطرُ
كلاهما طيّبٌ تُرْجى نوافله ... مباركٌ سَيْبُهُ يرجى ويُنتظر
لا يَجْمُدانِ عليهمْ عند جَهدِهِمُ ... كِلاهما نافعٌ فيهمْ إذا افتقروا
هذا يذودُ ويحمي عن ذِمارِهِمُ ... وذا يعيش به الأنعام والشَّجر
واستسلم الناسُ إذ حلَّ العدوُّ بهمْ ... فلا ربيعتُهمْ تُرجَى ولا مضرُ
وأنت رأسٌ لأهل الدين منتخَبٌ ... والرأسُ فيه يكون السمع والبصر
إن المهلَّب في الأيام فضَّله ... على منازلِ أقوام إذا ذُكروا
حَزْمٌ وجودٌ وأيامٌ له سلفتْ ... فيها يُعَدُّ جسيمُ الأمر والخطرُ
ماضٍ على الهولِ ما ينفكُّ مرتحلاً ... أسبابَ معضلةٍ يعيا بها البشر
سهلُ الخلائق يعفو عند قدرته ... منه الحياء ومن أخلاقه الخفَرُ
شهابُ حربٍ إذا حلّت بساحته ... يُخْزي به اللَّه أقواماً إذا غدروا
تزيدُهُ الحربُ والأهوال إن حضرت ... حزماً وعزماً ويجلو وجهَه السفر
ما إن يزالُ على أرجاءِ مُظْلمةٍ ... لولا يُكَفْكِفُها عن مِصرهمْ دَمَروا
سهلٌ إليهمْ حليمٌ عن مجاهلهمْ ... كأنما بينهُمْ عثمانُ أو عمر
كَهْفٌ يلوذون من ذُلّ الحياة به ... إذا تكنَّفهم من هولها ضرر
أَمْنٌ لخائِفِهِمْ فَيْضٌ لسائلهِمْ ... ينتاب نائلَه البادون والحَضرَ

فلما أتى على آخرها قال المهلب: هذا واللّه الشعر لا ما نعلل به! وأمر له بعشرة آلاف درهم وفرس جواد، وزاده في عطائه خمسمائة درهم.[١]

وللمغيرة بن حبناء قصيدة مدح بها المهلب بن أبي صفرة أيضا، أولها:

أمن رسوم ديارٍ هاجَكَ القِدَمُ ... أَقْوَتْ وأقفر منها الطَّفُّ والعَلَمُ
وما يَهيجُكَ من أطلالِ مَنْزِلَةٍ ... عفَّى معالِمَهَا الأرواحُ والديمُ
بئس الخليفةُ من جارٍ تضنُّ به ... إذا طربْتَ أثافي القِدْرِ والحُمَم
دارٌ التي كاد قلبي أن يُجَنَّ بها ... إذا ألمَّ به من ذِكرها لَمَم

١) الأغاني ج١٢ ص ٩٥ وما بعدها.

إذا تـذكَّـرهـا قـلـبـي تضـيّـفـه هـمٌّ تضِيق بـه الأحشـاء والـكَظَـم
والـبـيْنُ حـين يـروعُ الـقـلـبَ طائِفُه يبدي ويظهِر منهمْ بعضَ ما كتموا
إني امـــرؤٌ كفّـنـي ربّـي وأكـرمـنـي عـن الأمـــور الـتـي في غِـبِّـهَـا وَخَـمْ
وإنّمـــا أنـــا إنـســـانٌ أعـيـش كما عاش الـرجـال وعاشت قبلَيَ الأمم

وهي قصيدة طويلة، كان سبب قوله إياها أن المهلب كان أنفذ بعض بنيه في جيش لقتال الأزارقة، وقد شدت منهم طائفة تغير على نواحي الأهواز، وهو مقيم يومئذ بسابور، وكان فيهم المغيرة بن حبناء، فلما طال مقامه واستقر الجيش لحق بأهله فألم بهم وأقام عندهم شهرا، ثم عاود وقد قفل الجيش إلى المهلب، فقيل له: إن الكتاب خطّوا على اسمه، وكُتب إلى المهلب أنه عصى وفارق مكتبه بغير إذن، فمضى إلى المهلب، فلما لقيه أنشده هذه القصيدة، واعتذر إليه فعذره، وأمر بإطلاق عطائه وإزالة العتب عنه.[1]

دخل حاجب الفيل يومًا على يزيد بن المهلب وعنده ثابت قطنة وكعب الأشقري وكانا لا يفارقان مجلسه، فوقف بين يديه، فقال له: تكلم يا حاجب. فقال: يأذن لي الأمير أن أنشده أبياتًا؟ قال: لا حتى تبدأ فتسأل حاجتك. قال: أيها الأمير، إنه ليس أحد ولو أطنب في وصفك موفيك حقك، ولكن المجتهد محسن، فلا تَهجُني بمنعي الإنشاد، وتأذن لي فيه فإذا سمعت فجودك أوسع من مسألتي. فقال له يزيد: هات فما زلت مجيدًا محسنًا مجملاً، فأنشده:[2]

كـم مـن كـمـيٍّ في الـهِـيـاج تركتَه يَـهـوي لِـفـيـه مُجـــدَّلا مـقـتـولا
جـلّـلـتَ مـفـرِقَ رأسِـــه ذا رَونـق عضْبَ المـهـزَّة صـارِمـاً مصقولا
قُـــدْتَ الجِـيـادَ وأنـــت غِـرٌّ يـافِـعٌ حـتـى اكـتـهـلـتَ ولم تـزل مـأمـولا
كم قد حَرَبْت وقد جَبَرت مَعاشراً وكـم امـتـنـنـت وكـم شـفَـيـتَ غليلا

فقال له يزيد: سل حاجتك. فقال: ما على الأمير بها خفاء. فقال: قل. قال:

١) نفسه، ص ٩٧ وما بعدها.
٢) أبو الفرج الأصفهاني، ج١٤، مرجع سابق، ص ٢٥٨ وما بعدها.

إذًا لا أقصر ولا أستعظم عظيمًا أسأله الأمير -أعزه الله- مع عظم قدره؟ قال: أجل، فقل يفعل، فلست بما تصير إليه أغبط منا. قال: تحملني وتُخدِمني وتجزل جائزتي. فأمر له بخمسة تخوت ثياب وغلامين وجاريتين وفرس وبغل وبرذون وخمسة آلاف درهم، فقال حاجب:

شِم الْغَيْثَ وانْظُرْ وَيْك أين تبعَّجتْ ... كُلاه تَجِدْها في يَدِ ابن المهلّب
يداه يدٌ يُخْزِي بها اللهُ مَن عَصَى ... وفي يَدِهِ الأُخْرَى حياةُ المعصَّب

لما قتل المفضل بن المهلب دخل ثابت قطنة على هند بنت المهلب والناس حولها جلوس يعزّونها، فأنشدها:

يا هند كيف بِنُصْبٍ بات يَبْكِيني ... وعائرٍ في سَواد الليل يؤذيني
كأنَّ لَيْلِيَ والأصداءُ هاجدةٌ ... ليلُ السَّليم وأعيا من يُداويني
لمّا حنى الدهرُ من قَوْسِي وعذَّرني ... شيبي وقاسيت أمرَ الغلْظ واللين
إذا ذكرتُ أبا غَسَّان أرَّقَني ... همٌّ إذا عَرَّس السَّارُونَ يُشجيني
كان المفضَّلُ عِزّاً في ذوي يَمَنٍ ... وعِصمةً وثمالاً للمساكين
ما زلتُ بعدَكَ في همٍّ تجيش به ... نَفْسِي وفي نَصَب قد كادَ يُبْلِيني
إنِّي تذكَّرْتُ قتلَى لو شهدتُهُم ... في حَوْمَةِ الموْتِ لم يَصَلوا بها دُوني
لا خير في العَيْشِ إن لم أجن بعدَهم ... حرباً تُبِيء بهم قتلي فيشفوني

فقالت له هند: اجلس يا ثابَت فقد قضيت الحق وما من المنيّة بد، وكم من ميتة ميّت أشرف من حياة حي، وليست المصيبة في قتل من استشهد ذابًّا عن دينه مطيعًا لربه، وإنما المصيبة فيمن قلت بصيرته وخمل ذكره بعد موته، وأرجو ألا يكون المفضل عند الله خاملاً. يقال إنه ما عزي يومئذ بأحسن من كلامها.[١]

قال القحذمي: دخل ثابت قطنة على بعض أمراء خراسان -أظنه قتيبة ابن مسلم- فمدحه وسأله حاجة فلم يقضها له، فخرج من بين يديه، وقال لأصحابه:

١) نفسه، ص ٢٦٧.

لكن يزيد بن المهلب لو سألته هذا أو أكثر منه لم يردني عنه، وأنشأ يقول:[1]

أبـا خـالـدٍ لم يَـبْـقَ بعـدك سُوقَةٌ ... ولا مَـلـك ممَّـن يُـعين على الـرِّفْـدِ
ولا فـاعـلٌ يـرجـو المـقـلُّـونَ فضلَهُ ... ولا قـاتـلٌ يَـنْـكـا الـعـدوَّ على حقدِ
لـو أنَّ المنايا سامحتْ ذا حَفِيظَةٍ ... لأكرمنه أو عُـجْـن عَـنـه على عمدِ

قصيدة كعب الأشقري التي يمدح بها المهلب بن أبي صفرة ويذكر قتاله الأزارقة، وفيها يقول:[2]

أتـــاني والحـــديـــثُ لـه نَمـــاءٌ ... مـقـالـةُ جـائـر أحـفـى وجـارا
سـلـوا أهـلَ الأبـاطـح مـن قريشٍ ... عـن الـعـزِّ المـؤيَّـدِ أيـن صـارا
ومَـنْ يحمي الثغورَ إذا استحرَّت ... حـــروبٌ لا يَـنـون لـهـا غـــرارا
لقومي الأزد في الغَمَرات أمضى ... وأوفَـــى ذِمَّـــةً وأعـــزُّ جـارا
هُـم قـادوا الجِـيـادَ على وَجَـاهـا ... مـن الأمـصـارِ يـقـذِفْـنَ المِـهـارا
بـكـلِّ مـفـازةٍ وبـكـلِّ سَـهْـبٍ ... بَـسـابـسَ لا يَـــرَوْنَ لـهـا مَـنـارا
إلى كـرمـانَ يـحـمـلـن المـنـايـا ... بـكـلِّ ثـنـيّـةٍ يـوقِـدن نـارا
شـوازب لم يصبن الثأر حتى ... رددنـاهـا مـكـلَّـمـةً مـرارا
ويشجرن العوالي السُّمْر حتَّى ... تَـرَى فيها عـن الأَسَـلِ ازوِرارا
غـداة تـركـن مـصـرعَ عبد ربٍّ ... يُـثِـرْنَ عليه مـن رَهَـجٍ عِـصـارا
ويـوم الـزحـف بـالأهـواز ظِـلْـنـا ... نـروِّي مـنـهـمُ الأسَـلَ الحِـرارا
فـقـرَّت أعـــيُنٌ كـانـت حـديـثـاً ... ولم يـك نـومـهـا إلا غِـــرارا
صـنـائـعـنـا الـسَّـوابـغ والمـذَاكـي ... ومَـن بـالمِـصـر يحتلب العِشارا
فـهـنَّ يـبـحـن كـلَّ حِـمًـى عـزيـز ... ويَـحـمـين الحـقـائـقَ والـذِّمـارا
طُـــوالاتُ المُـتـونِ يُـصَـنَّ إلاَّ ... إذا سـار المـهـلَّـب حيث سـارا
فـلـولا الشَّـيـخ بـالمِـصْـرَيْـن يَنْفِي ... عـدوَّهُـم لـقـد تَـركـوا الـديـارا

---

١) نفسه، ص ٢٧١.
٢) نفسه، ص ٢٨٧.

ولـكـنْ قـارع الأبـطـالَ حتى أصـابوا الأمـنَ واجتنبوا الفرارا
ومُـبْـهَـمَـة يحيد الـنـاسُ عنها تَـشُـبُّ المـوتَ شـدَّ لـهـا الإزارا
شِـهـابٌ تنجلي الـظَّـلـمـاء عنه يَـرى في كـلِّ مـبـهـمـة مـنـارا
بـل الـرحـمـنُ جـارُك إذ وَهَـنَّـا بِـدفـعِكَ عـن محـارِمِـنـا اخْـتِـيَـارا
بَـراك اللّه حـين بَـراك بَـحْـرًا وفـجَّـر مـنـك أنـهـاراً غِـزَارا

خرج العديل بن الفرخ يريد الحجاج، فلما صار ببابه حجبه الحاجب، فوثب عليه العديل وقال: إنه لن يدخل على الأمير بعد رجالات قريش أكبر مني ولا أولى بهذا الباب، فنازعه الحاجب الكلام، فأحفظه وانصرف العديل عن باب الحجاج إلى يزيد بن المهلب، فلما دخل إليه أنشأ يقول:

لئن أرتج الحجـاجُ بالبخل بـابَه فبـاب الفتى الأزديّ بالعُرف يُفتحُ
فتىً لا يبالي الدهرَ ما قلَّ مـالُه إذا جعلتْ أيدي المكـارم تسنَح
يداه يدٌ بالعـرف تُنهبُ مـا حوتْ وأخرى على الأعـداء تَسطو وتجرحُ
إذا مـا أتـاه المرملون تيقَّنـوا بأّن الغِنَى فيهـم وَشيـكاً سَيسرَحُ
أقـام على العافين حُـرَّاسَ بـابه يُنـادونهـم وَالحُرُّ بالحرّ يَفـرحُ
هلمُّـوا إلى سَيْـبِ الأمير وَعُرفِه فإنّ عطـايـاه على النـاس تَنْفَحُ

فقال له يزيد: عرَّضتَ بنا وخاطرت بدمك، وباللّه لا يصل إليك وأنت في حيزي، فأمر له بخمسين ألف درهم وحمله على أفراس، وقال له الحق بعلياء نجد، واحذر أن تعلقك حبائل الحجاج، أو تحتجنك محاجنه، وابعث إلي في كل عام، فلك عليَّ مثل هذا فارتحل[١]

ولمسلم بن الوليد (صريع الغواني) قصيدة طويلة مدح بها داوود بن حاتم مطلعها:[٢]

١) الأغاني ج٢٢ ص ٣٣٢.
٢) ديوانه ص ١٧ وما بعدها.

لا تدعُ بي الشوقَ إني غير مَعمودِ ... نَهى النُّهى عن هوى الهِيْفِ الرعاديد

يقول فيها:

إلى بَني حاتم أدّى رَكائبَنا ... خَوضُ الدُجى وَسُرى المَهريَّة القُودِ
تَطوي النَهارَ فَإن لَيلٌ تَخَمَّطَها ... باتَت تَخَمَّطُ هامات القَراديدِ
مثلَ السمام بَعيدات المَقيلِ إذا ... ألقى الهَجيرُ يَداً في كُلِّ صَيخودِ
حَلَّت بداوُدَ فَامتاحَت وَأعجَلَها ... حذرُ النعالِ عَلى أينٍ وَتَحريدِ
أعطى فَأَفنى المُنى أدنى عَطيَّته ... وَأَرهَقَ الوَعدَ نُجحاً غَيرَ مَنكودِ
وَاللهُ أطفَأَ نارَ الحَربِ إذ سُعِرَت ... شَرقاً بِمُوقِدها في الغَربِ داوُدِ
لَم يَأتِ أمراً وَلَم يَظهر عَلى حَدَث ... إلّا أُعينَ بتوفيقٍ وَتَسديدِ
مُوَحَّدُ الرَأيِ تَنشَقُّ الظُنونُ لَهُ ... عَن كُلِّ مُلتَبِسٍ مِنها وَمَعقودِ
تُمنى الأُمورُ لَهُ مِن نَحوِ أوجُهِها ... وَإن سَلَكنَ سَبيلاً غَيرَ مَوروِدِ

وفيها:

آلُ المُهَلَّبِ قَومٌ لا يَزالُ لَهُم ... رِقُّ الصَريحِ وَأَسلابُ المَذاويدِ
مُظَفَّرونَ تُصيبُ الحَربُ أنفُسَهُم ... إذا الفِرارُ تَمَطّى بِالمَحاييدِ
نجلٌ مَناجيبُ لَم يَعدَم تِلادُهُمُ ... فَتىً يُرَجّى لِنَقضٍ أَو لِتَوكيدِ
قَومٌ إذا هَدأَةٌ شامَت سُيوفَهُمُ ... فَإنَّها عُقُلُ الكومِ المَقاحيدِ
نَفسي فِداؤكَ يا داودُ إذ عَلقَت ... أيدي الرَدى بِنَواصي الضُمَّرِ القودِ
داوَيتَ مِن دائِها كَرمانَ وَانتَصَفَت ... بِكَ المَنونُ لِأَقوامٍ مَجاهيدِ
مَلأَنَها فَزَعاً أَخلى مَعاقِلَها ... مِن كُلِّ أَبلَخَ سامي الطَرفِ صِنديدِ
لَمّا نَزَلتَ عَلى أدنى بِلادِهِمُ ... أَلقى إلَيكَ الأَقاصي بِالمَقاليدِ
لَمستَهُم بِيَدٍ لِلعَفوِ مُتَّصِلٍ ... بِها الرَدى بَينَ تَليينٍ وَتَشديدِ
أَتيتَهُم مِن وَراءِ الأَمنِ مُطَّلِعاً ... بِالخَيلِ تَردي بِأَبطالٍ مَناجيدِ
وَطارَ في إثرِ مَن طارَ الفِرارُ بِهِ ... خَوفٌ يُعارِضُهُ في كُلِّ أُخدودِ
فاتوا الرَدى وَظُباتُ المَوتِ تَنشُدُهُم ... وَأَنتَ نَصبُ المَنايا غَيرُ مَنشودِ

وفيها:

يَومَ استَضَبَّت سِجستانٌ طَوائفَها عَلَيكَ مِن طالِبٍ وِتراً وَمَحقودِ
ناهَضتَهُم ذائدَ الإِسلامِ تَقرَعُهُم عَنهُ ثُلاثَ وَمَثنى بِالمَواحيدِ
تَجودُ بِالنَفسِ إِذ أَنتَ الضَنينُ بِها وَالجودُ بِالنَفسِ أَقصى غايَةِ الجودِ
تِلكَ الأَزارِقُ إِذ ضَلَّ الدَليلُ بِها لَم يُخطِها القَصدُ مِن أَسيافِ داودِ

ويختمها بقوله:

عَوَّدتَ نَفسَكَ عاداتٍ خُلِقتَ لَها صِدقَ الحَديثِ وَإِنجازَ المَواعيدِ

**ما قيل فيهم نثرا:**

وكما مُدِحوا شعرًا مُدِحوا نثرًا؛ إذ قال فيهم الخطباء، وكتب عنهم الكُتَّاب. ومما قيل فيهم نثرًا ما يأتي:

إن المهلب بن أبي صفرة وأولاده من الشجاعة والنجدة بالموضع المعروف، إلا أنّ المغيرة بن المهلب من بينهم كان أشدّ تمكنًا، وكان المهلب يقول: ما شهد معي حربًا إلا رأيت البشرى في وجهه، وكان أشدّ ما تكون الحرب أشدّ ما يكون تبسمًا، وكان إذا نظر إلى الرماح قد تشاجرت في وجهه نكس على قربوس السرج، وحمل من تحتها فبراها بسيفه، وأثّر في أصحابها.[١]

وقيل للفرزدق: إنك لتمدح آل المهلب وتحبهم بعد أن لم تكن على ذلك. فقال: أما علمت أن إعطاء اللُّها يفتح اللَّها ويغرس الهوى؟[٢]

وَرَوَى: الحَسَنُ بنُ عُمَارَةَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ:

مَا رَأَيْتُ أَمِيراً قَطُّ أَفْضَلَ وَلاَ أَسْخَى وَلاَ أَشْجَعَ مِنَ المُهَلَّبِ، وَلاَ أَبْعَدَ مِمَّا يَكْرَهُ، وَلاَ أَقْرَبَ مِمَّا يُحِبُّ.[٣]

ولما ظهر المهلب بن أبي صفرة على الخوارج أرسل كعب بن معدان الأشقري ومُرة ابن تليد الأزدي إلى الحجاج؛ ليعلماه بالفتح، فلما طلعا عليه تقدم كعب فأنشد:

١) البغدادي، مرجع سابق، ج٢ ص ٤١٢.
٢) الراغب الأصبهاني، مرجع سابق، ج١ ص ٦٦٠.
٣) الذهبي، ج٤، مرجع سابق، ص ٣٨٤، وفي مختصر تاريخ دمشق (نحب) و(نكره).

يا حفص إني عداني عنكم السفر وقد سهرت فأرْدى نومَيَ السهر

فقال له الحجاج: أشاعر أم خطيب؟ فقال: كلاهما، ثم أنشده القصيدة، ثم أقبل عليه فقال: خبرني عن بني المهلب، فقال: المغيرة فارسهم وسيدهم، وكفى بيزيد فارساً شجاعاً، وجوادهم وسخيهم قبيصة، ولا يستحيي الشجاع أن يفر من مدرك، وعبدالملك سم ناقع، وحبيب موت ذعاف، ومحمد ليثُ غابٍ، وكفى بالفضل نجدة، قال: فكيف خلفت جماعة الناس؟ قال: قد خلفتهم بخير، قد أدركوا ما أمَّلوا، وأمنوا ما خافوا، قال: فكيف كان بنو المهلب فيهم؟ قال: كانوا حماة للسرح نهاراً، فإذا أليلوا ففرسانٌ للبيات، قال: فأيُّهم كان أنجد؟ قال: كانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها، قال: فكيف كنتم أنتم وعدوكم؟ قال: كنا إذا أخذنا عفونا وأخذوا عفوهم يئسنا منهم، وإذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم، فقال الحجاج: (إِنَّ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) كيف أفلتكم قطري؟ قال: كادنا ببعض ما كنا نكيده، قال: فهلاَّ اتّبعتموه؟ قال: كان الحد عندنا آثر من الفل. قال: كيف كان لكم المهلب وكنتم له؟ قال: كان لنا منه شفقة الوالد، وله منا بر الولد، قال: فكيف اغتباط الناس؟ قال: فشا فيهم الأمن، وشملهم النفل. قال: أكنت أعددت لي هذا الجواب؟ قال: لا يعلم الغيب إلاّ الله، قال: هكذا والله يكون الرجال، المهلب كان أعلم بك حين وجّهك.

وفي "نوادر القالي" أن الحجاج قال له: كيف كان محاربة المهلب للقوم؟ قال: كان إذا وجد الفرصة سار كما يسور الليث، وإذا دَهمَتْه الطحمة راغ كما يروغ الثعلب، وإذا مادَّه القوم صبر صبر الدهر. وأنه قال له: كيف أفلتكم قطريّ؟ قال: كادنا ببعض ما كدناه به، والأجل أحصن جُنَّة، وأنفذ عُدة. قال: وكيف اتبعتم عبد ربه وتركتموه؟ قال: آثرنا الحد على الفل، وكانت سلامة الجند أحب إلينا من شجب العدو.[1]

قال قتيبة لنهار بن توسعة: لست تقول فينا كما تقول في آل المهلب! قال: إنهم والله كانوا أهدافاً للشعر، قال: هذا والله أشعر مما قلت فيهم.[2]

١) المحاضرات في اللغة والأدب ص ٢٥٣.

٢) البصائر والذخائر ج٢ ص ٢٠٠.

وثلاثة سادوا في نسق: المهلب بن أبي صفرة، وابنه يزيد، وابن يزيد مخلد وهو صبي.[١]

تغدى سليمان عند يزيد بن المهلّب، فقيل له: صف لنا أحسن ما كان في منزله، فقال: رأيت غلمانه يخدمون بالإشارة دون القول.[٢]

وبلغنا عن المدائني أنه قال: ليس السؤدد بالشرف، وإنما ساد الأحنف بن قيس بحلمه، وحضين بن المنذر برأيه، ومالك بن مسمع بمحبته في العامة، وسويد ابن منجوف بعطفه على أرامل قومه، وساد المهلب بن أبي صفرة بجميع هذه الخصال[٣]

ومنهم يزيد بن المهلب، قيل: كان هشام بن حسّان إذا ذكره قال: كانت السفن تجري في بحر جوده.[٤]

ورجل حليف اللسان: إذا كان حديد اللسان فصيحاً، يقال: ما أحلف لسانه، ومنه حديث الحجاج: أنه أتي بيزيد بن المهلب يرسف في حديد؛ فأقبل يخطر بيده، فغاظ ذلك الحجاج، فقال:

جَمِيلُ المُحَيّا بَخْتَرِيٌّ إذا مَشَى

وقد ولى عنه، فالتفت إليه، فقال:

وفي الدِّرْعِ ضَخْمُ المَنْكِبَيْنِ شِنَاقُ

فقال الحجاج: قتله الله ما أمضى جَنَانَه وأحْلَفَ لسانه.[٥]

ومر يزيد بن المهلب في طريق البصرة بأعرابية، فأهدت إليه عنزًا فَقَبِلَهَا، وقال لابنه معاوية: معاوية، ما عندك من نفقة؟ قال: ثمانمائة درهم. قال: ادفعها إليها. قال: إنها لا تعرفك ويرضيها اليسير. قال: إن كانت لا تعرفني، فأنا أعرف نفسي،

١) التوحيدي، البصائر والذخائر، ج٥، ص ٤٢.
٢) التوحيدي، البصائر والذخائر، ج٧، ص ٧٠.
٣) البيهقي، المحاسن والمساوئ، ج١، ص ٩٧.
٤) الحموي، ثمرات الأوراق في المحاضرات، ص ٤٥.
٥) الصفاني، مرجع سابق، ج١، ص ٣٩١.

وإن كان يرضيها اليسير، فأنا لا أرضى إلا بالكثير.[1]

قال رجل ليزيد بن المهلب: قد عظم قدرك من أن يستعان بك، أو يستعان عليك؛ ولست تفعل شيئًا من المعروف إلا وأنت أكبر منه وهو أصغر منك، وليس العجب من أن تفعل، وإنما العجب من ألّا تفعل.[2]

**القيم الأخلاقية والخصائص الفنية في أدبهم:**

إن المتأمل في أقوال المهالبة يجد أنها تنطلق من أخلاق عالية، أهمها: الشجاعة والإقدام، والجود، والحزم، والصدق، والتواضع، والترفّع عن الدنايا، والحلم، والعفو. ومن الخصائص الفنية التي اتّسمت بها تلك النصوص في مجملها:

صدق العاطفة: فأغلب ما ذكر في أعلاه حِكم نتجت عن تجارب شخصية، واستفادةٌ من تجارب السابقين.

عمقها: إذ لم تكن تنبع من مواقف عابرة لا تلبث أن تتغير وتتبدل.

استمراريّتها: فهي تعبّر عن مشاعر إنسانية خالدة.

سموها: وهذا واضح من الأخلاق الحميدة التي تنبع منها تلك الأقوال.

أما الأفكار والمعاني فتتسم بالموضوعية، فهي نابعة من الواقع والبيئة والتجربة لا من الخيال.

عقلية: فالنصوص يغلب عليها الطابع العقلي لا العاطفي.

إيجابية: تعالج مشكلات وتوجّه إلى حلّها.

النصوص السابقة لا تكاد تخلو من الخيال، على الرغم من أن كثيرا منها أشبه بالحكم التي هي بالأسلوب العلمي أشبه؛ فأنت ترى الصور البلاغية بأنواعها مبثوثة فيها، منتشرة انتشار النور في شجر الربيع.

---

١) ابن عبد ربّه، العقد الفريد ج١، ص٢٥٧.

٢) العسكري، كتاب الصناعتين ص٤٠٥.

وفي تلك النصوص الأسلوبان الإنشائي، والخبري، وهما فيها يتصفان بجزالة الألفاظ، ووضوح العبارات، والخلو من التعقيد، ومن اللحن، ومن الغريب.

**الخاتمة:**

بعد هذه الجولة الممتعة في رياض أدب هذه الأسرة العمانية العريقة، التي ملأت سمع من عاصرها وبصره، وتركت جواهر منظومة ومنثورة، من صوغها ومن صوغ الشعراء والأدباء الذين عاصروا ظهور نجمها في سماء المسلمين حقبة من الدهر، يجد الباحث نفسه أنه لم يفِ بما وعد به من جمع ما قالوه؛ لكثرة ما وجد، ولضيق الوقت، وإنما سلط الأضواء على جانب مما قيل فيهم شعرًا ونثرًا. والاطلاع على أدب المهالبة يبين بوضوح قدرهم ومنزلتهم السامقة التي جعلتهم مضرب المثل، ومحطّ الرحال، ومعقد الآمال، ويوضح كيف يكون القادة والرؤساء أخلاقًا وحكمة وفصاحة وبلاغة وعلوّ همة وبعد نظر. ويدعو الباحث الباحثين إلى استقصاء أدب المهالبة وأخبارهم، ودراسته وتمحيصه؛ لتستفيد منه الأجيال، وتتبع خطى آبائها الأشبال، وأهل عمان بذلك أولى، وبه أعرف، كما قال الشاعر:

وهل ينبت الخطيُّ إلا وشيجه  وتغرس إلا في منابتها النخل

**المصادر والمراجع:**


١. ابن حجة الحموي، أبو بكر بن علي: ثمرات الأوراق في المحاضرات (مطبوع بهامش المستطرف في كل فن مستظرف للشهاب الأبشيهي)، د.ط، مكتبة الجمهورية العربية، مصر، د.ت. (من الموسوعة الشاملة)

٢. ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي: جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٨٧م

٣. ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي: ديوان ابن دريد، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٤. ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين الانصاري: مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ط١، تحقيق: روحية النحاس ورياض عبد الحميد مراد ومحمد مطيع، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، سوريا، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٤م.

٥. ابن منقذ، أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر: لباب الآداب، ط٢، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة السنة، القاهرة، مصر، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.

٦. الآبي، أبو سعد منصور بن الحسين الرازي: نثر الدر في المحاضرات، تحقيق: خالد عبد الغني، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.

٧. الأصبهاني، أبو بكر محمد بن داود: الزهرة، تحقيق: إبراهيم السامرائي، ط٢، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

٨. الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد: الأغاني، تحقيق: سمير جابر، ط٢، دار الفكر، بيروت، لبنان، (من الموسوعة الشاملة)

٩. الأنصاري، مسلم بن الوليد شرح ديوان صريع الغواني، ط٣، تحقيق: سامي الدهان، دار المعارف، القاهرة، مصر، د.ت.

١٠. البصري، أبو الحسن علي بن أبي الفرج بن الحسن: الحماسة البصرية،

تحقيق: مختار الدين أحمد، د.ط، عالم الكتب، بيروت، لبنان، د.ت.

١١. البغدادي، أبو المعالي محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون: التذكرة الحمدونية، ط١، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٤١٧ هـ.

١٢. البيهقي، إبراهيم بن محمد: المحاسن والمساوئ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، د.ط، دار المعارف، القاهرة، مصر، د.ت.

١٣. التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد بن العباس: البصائر والذخائر، ط١، تحقيق: وداد القاضي، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

١٤. الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل: التمثيل والمحاضرة، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، ط٢، الدار العربية للكتاب، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م. (من الموسوعة الشاملة)

١٥. الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل: لباب الآداب، تحقيق: أحمد حسن لبج، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م.

١٦. الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل: من غاب عنه المطرب، د.ط، المطبعة الأدبية، بيروت، لبنان، ١٣٠٩هـ.

١٧. الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، د.ط، دار الجيل، بيروت، لبنان، د.ت.

١٨. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب: الحيوان، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ.

١٩. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب: المحاسن والأضداد، د.ط، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ١٤٢٣ هـ.

٢٠. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب: رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، د.ط، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤م.

٢١. الجريرى النهرواني، أبو الفرج المعافى بن زكريا بن يحيى: الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، تحقيق: عبد الكريم سامي الجندي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٢٢. الحصري القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن علي: زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق: يوسف علي الطويل، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٢٣. الخالدي، أبو بكر محمد بن هاشم والخالدي، أبو عثمان سعيد بن هاشم: الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين، تحقيق: السيد محمد يوسف د.ط، د.نا، القاهرة، مصر، د. ت.

٢٤. الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان: سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنـاؤوط، ط٣، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م.

٢٥. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ط١، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، لبنان، ١٤٢٠ هـ.

٢٦. الرقي، ربيعة بن ثابت بن لجأ: ديوان ربيعة الرقي، د. بيانات. (من الموسوعة الشاملة)

٢٧. الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس: الأعلام، ط١٥، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، مايو ٢٠٠٢ م.

٢٨. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر: ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، ط١، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ.

٢٩. الصغاني، الحسن بن محمد بن الحسن: العباب الزاخر واللباب الفاخر، د. بيانات. (من الموسوعة الشاملة)

٣٠. الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله: أخبار أبي تمام، تحقيق: بياتريس جريندلر، د.ط، المكتبة العربية، د.ت.

٣١. الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى: أدب الكتاب، تحقيق: محمد بهجة الأثري، د.ط، المطبعة السلفية، مصر، والمكتبة العربية، بغداد، العراق، ١٣٤١هـ.

٣٢. العسكري، أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد: المصون في الأدب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط٢، مطبعة حكومة الكويت، دولة الكويت، ١٩٨٤م.

٣٣. العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل: كتاب الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، د.ط، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ.

٣٤. ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، العقد الفريد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٤هـ.

٣٥. الفرزدق، أبو فراس همام بن غالب: ديوان الفرزدق، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٣٦. القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم: ذيل الأمالي، د.ط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.

٣٧. القرشي، عباس بن محمد بن مسعود: حماسة القرشي، تحقيق: خير الدين محمود قبلاوي، د.ط، وزارة الثقافة، دمشق، الجمهورية العربية السورية، ١٩٩٥م.

٣٨. القرطبي، أبو عمر يوسف ابن عبد البر: بهجة المجالس وأنس المجالس، تحقيق: محمد مرسي الخولي، د. ط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د. ت.

٣٩. المغربي، شهاب الدين أحمد بن أبي حجلة: ديوان الصبابة، د. بيانات (من الموسوعة الشاملة)، ديوان الصبابة، بيروت دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٠م.

٤٠. الوشاء، أبو الطيب محمد بن أحمد بن إسحاق بن يحيى: الموشى أو الظرف والظرفاء، تحقيق: كمال مصطفى، ط٢، مكتبة الخانجي، شارع عبد العزيز، مصر، ١٣٧١هـ - ١٩٥٣م.

٤١. الوطواط، أبو إسحق محمد بن إبراهيم بن يحيى بن علي: غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائض الفاضحة، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٩ هـ/ ٢٠٠٨ م.

٤٢. اليوسي، أبو علي الحسن بن مسعود بن محمد المحاضرات في اللغة والأدب، د.ط، د.نا، د.ت. (من الموسوعة الشاملة)